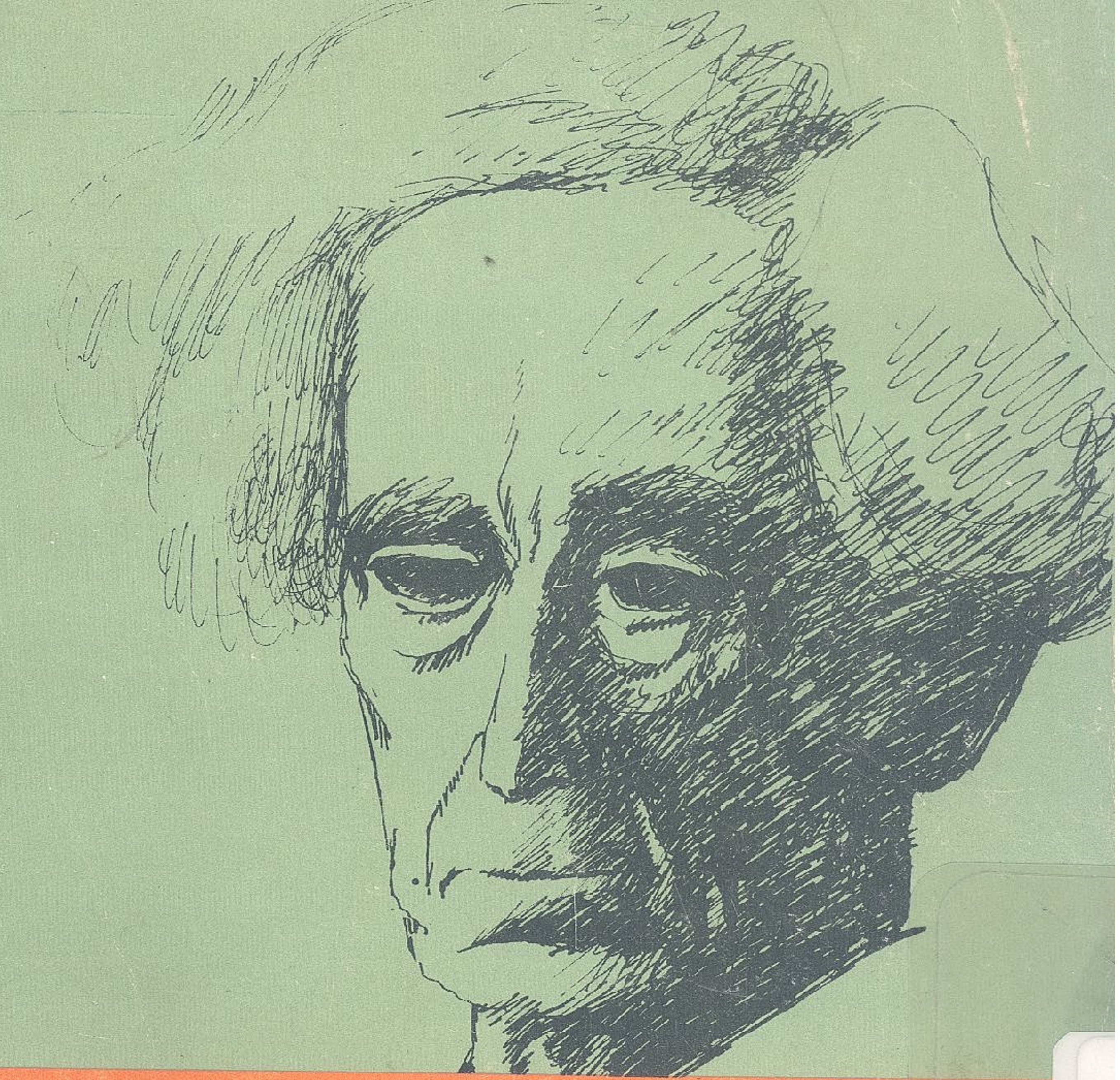


برتراند راسل

عظماء وأحلام مزعجة

دار المعارف

ترجمة

نصار عبد الله

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة

برتراند راسل

عظماء وأحلام مزعجة

ترجمة نصار عبد الله

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المؤلف[1]

فى فبراير ١٩٧٠ فقدت الفلسفة المعاصرة واحداً من أبرز أعلامها ، وفقد السلام العالمى داعية من أبرز دعاته ، بل إننا يمكن أن نقول دون ما تجاوز إن العالم بأسره ، قد فقد واحداً من أبطاله ومناضليه الحقيقيين بفقده الفيلسوف الإنجليزى الشهير برتراند راسل .

ولد راسل فى مايو سنة ١٨٧٢ وكان الطفل الثالث للورد أمبرلى الذى ينحدر من أسرة إنجليزية عريقة ، يمكن تتبع أصولها إلى جون راسل أحد رجال البلاط الملكى فى عصر « هنرى الثامن » ، وواحد من ذوى الحظوة لديه ، وأما الجد المباشر لبرتراند ، فقد كان يدعى جون راسل ، أيضاً ، وقد تبوأ منصب رئاسة الوزارة مرتين فى عصر الملكة فيكتوريا .

وعندما بلغ برتراند العامين من العمر ، أصيب أخوه وأخته ثم

---

(١) اعتمدنا فيا يتعلق بحياة راسل على كتاب هربرت جوتشالك « عرض لحياة برتراند راسل » .

أمه بالدفتريا ، وقد شفى أخوه الأكبر فرانك ، لكن الدفتريا قضت على حياة أمه وأخته راشيل ، وقد عاش لورد أمبرلى هذه المحنة المضاعفة فترة قصيرة ، ثم انتهت حياته ، فأصبح الشقيقان برتراند وفرانك يتيمين .

وفى سنة ١٨٧٨ توفى جد برتراند فقامت أرملته بالإشراف على تربية الطفلين وتعليمهما حيث فرضت عليهما نمطًا صارما متقشفاً من الحياة يشبه نمط الحياة العسكرية الإسبرطية ، ولقد شب برتراند فى هذا الجو طفلا حيياً خجولا ومطيعاً .. كما تميز تفكيره بنوع من الشك فى الكثير من الحكايات التى كان يرويها له الكبار فى السن ، فعندما قيل له إن الملائكة ترفرف حول الأطفال وهم مستغرقون فى النوم .. قرر أن يتظاهر بالنعاس ثم يفتح عينيه فجأة قبل أن تتمكن الملائكة من الاختفاء ، وهكذا أصيب الطفل برتراند بخيبة أمل ، عندما لم يشاهد أى ملاك يرفرف حوله ، وأيقن أن ما يقوله الكبار هو مجرد أكاذيب ، ومرة أخرى انهمك الطفل برتراند فى حفر حفرة عميقة فى حديقة المنزل ، لكى يتأكد إن كانت الأرض كروية حقًا أم لا .. ولما طال به الحفر دون أن ينفذ إلى أستراليا تيقن أن مما يقوله الكبار عن كروية الأرض قول غير صحيح .

بيد أن أكثر ما فتن به راسل فى منزل جدته كانت المكتبة التى

خلفها جده ، وقد أعجب راسل بتاريخ سلفه اللورد وليم راسل ، الذى أعدم فى عصر تشارلس الثانى ، فقدم بموته مثلا بأن النضال من أجل سلطة دستورية ، هو مطلب حق وعدل وإن لم يعد على أصحابه بالنفع فى كل الحالات .

ولقد بدأ برتراند يقرأ كثيرًا وهو فى سن مبكرة ، حتى كادت تعتل عيناه وهو لم يزل بعد فى السادسة عشرة ، وقد بدأ فى هذا السن يفكر فى مشكلة الدين وحرية الإرادة والخلود والله لاقيًا التشجيع على ذلك من المعلم الخاص الذى كانت الأسرة قد عينته ليقوم بالتدريس له ، لكن المعلم سرعان ما طرد من وظيفته هذه ، خشية أن تؤثر أفكاره على عقيدة الغلام .

بيد أن بذور الشك كانت قد نبتت فى صدر راسل ، وعندما قرأ مذكرات (جون ستيوارت ميل) خلص إلى الرفض التام لفكرة الله ، وآمن بأن الذى ينبغى أن يقبل على أنه صحيح ، هو ما تبرهن التجربة على صحته .

وعندما أبدى برتراند رغبة فى الالتحاق بكمبريدج ، استدعى له معلم خاص لكى يقوم بتعليمه اللاتينية والإغريقية بالقدر الذى يؤهله لاجتياز الاختبارات التمهيدية ، ذلك أن جدته لم تكن تثق فى المدارس العامة .

وقد أشرف (ألفريد هوايتهيد) على اختبار قبول برتراند بكلية ترينتى ، وللوهلة الأولى أدرك هوايتهيد مواهب الفتى الشاب ، وساعده على تكوين صداقاته الأولى فى كمبريدج .

وبدأ برتراند راسل يلقى عن عاتقه عبء العزلة الثقيل ، مكونًا عددًا من الصداقات المثمرة مع رفاق الدراسة .

وعلى الرغم من الخجل الذى لازم راسل طويلا كان قد بدأ يذوب تدريجيًا إلا أنه كان يعتريه فى حضور الفتيات ، وهكذا فعندما وقع فى غرام (آليس بيرسال سميث) سليلة إحدى أسر الكويكر ، لازمته الربكة والصمت مع الإصرار والتشبث فى نفس الوقت .

أما جدته ، فقد استنكرت هذا الغرام بطبيعة الحال ، وأصرت على أن تضعه موضع الاختبار على الأقل ، وهكذا تم إيفاد برتراند إلى باريس كملحق للسفير البريطانى ، على أمل أن تلهيه الحياة فى العاصمة الفرنسية عن فكرة الزواج ، لكنه وجد فى العمل الدبلوماسى أمرًا بغيضًا ، وهكذا قر قراره منذ البداية على اجتناب هذا الطريق ، وعاد إلى إنجلترا عام ١٨٩٤ ، ليتزوج من « آليس » التى كانت تكبره بخمس سنوات ، بيد أن هجره للدبلوماسية لم يكن يعنى نبذه للسياسة ، فلقد كان اهتمامه بالعمل السياسى اهتمامًا كبيرًا .

بدأ يهتم بالاشتراكية بوجه خاص ، فأخذ يدرس أساسها

الاقتصادى ، ثم سافر مع زوجته عقب زواجهما إلى برلين لدراسة حركة الاشتراكية الألمانية ، وهى الرحلة التى تمخض عنها كتابه « الديمقراطية الاشتراكية الألمانية » .

درس راسل فى تلك الفترة كتاب (ماركس) « رأس المال » ، كما تأثر تأثراً كبيراً بالبيان الشيوعى لما تميز به من اطراح القيم التقليدية ، ووضوح رؤياه وخلوه من الأوهام والخزعبلات ، بيد أن هذا لم يمنعه من تحليل ونقد الماركسية من خلال وجهة نظر ليبرالية بريطانية .

ثم كانت رحلة الزوجين « راسل » التالية إلى الولايات المتحدة حيث سافرا إليها عام ١٨٩٦ وقضيا فيها ثلاثة شهور بدآها بزيارة الشاعر الأمريكى (والت ويتمان) اللذان كانا يكنان له الإعجاب .

وقد قام راسل بإلقاء عدد من المحاضرات فى جامعة جونز هوبكنز ، كما أتاحت له زيارته تلك للولايات المتحدة فرصة التعرف على أعمال الرياضى الألمانى فيرشتراس ، ثم واصل اهتمامه بالرياضيات ، فعندما عاد إلى بريطانيا ، أعاد قراءة (هيجل) حيث خلص فى هذه المرة إلى أن ما كتبه هذا الفيلسوف الكبير فى الرياضيات إنما هو محض هراء ، وعندما حضر المؤتمر الفلسفى الدولى الذى عقد فى باريس فى مطلع هذا القرن ، تعرف على الفيلسوف الإيطالى (بيانو)

الذى أهداه نسخة من كتابه « المنطق الرمزى » وقد كشف له هذا الكتاب أن الرياضيات ما هى إلا صورة من صور المنطق ، وبشكل عام فقد أفادته أفكار بيانو وأثارت له الكثير من أفكاره برغم أنه كان قد انتهى فعلا من إعداد مسودات كتابه أصول الرياضيات قبل أن يتوجه لحضور المؤتمر.

وقد أبدى هوايتهيد اهتمامًا شديدًا بأعمال راسل ، وفى النهاية قررا أن يشتركا معا فى تأليف مؤلفهما الشهير « برنكيبيا ماتماتيكا » الذى استغرق منهما زهاء عشر سنوات (١٩٠٠ — ١٩١٠) .

لقد كان من أهم الأحداث التى تأثر بها راسل تأثرًا كبيرًا فى تلك الفترة قيام الحرب العالمية الأولى التى خيبت آماله فى صحة عقول البشر ، فقد ألفى العباقرة من الجنس البشرى يتسابقون فى ابتكار أفضل الوسائل الكفيلة بتدمير هذا الجنس وإبادته ، وأخذ راسل يدين مبدأ الحرب بكل عنف ، إلى حد أنه وصل إلى القول بأن التضحية بأرواح البشر وإصابة الشبان بالعاهات ليست أكثر شرًا من التسليم لألمانيا ، وهو القول الذى عرضه للاتهام بانعدام الوطنية من قبل الكثيرين ، ولم يكن هذا صحيحاً ، فقد كان راسل يحب إنجلترا ، بل إنه كان فى أعماقه يتمنى لها النصر على أعدائها ، لكنه فى الوقت ذاته ، كان يبغض الحرب ويعدها أشبه شيء بالمأساة

الإغريقية ، وقد ألقى راسل عدداً من الأحاديث العامة يهاجم فيها الحرب ، ويطلب أن تظل بريطانيا على الحياد ، كما انضم إلى جمعية رافضى التجنيد ، وأعد بياناً يستنكر فيه الحكم بالأشغال الشاقة على أحد أعضائها لرفضه طلب الاستدعاء للجندية ، وقد قدم راسل للمحاكمة لإعداده هذا البيان ، حيث أدانته المحكمة وقضت بتغريمه مائة جنيه ، وفى نفس الوقت قامت كلية ترنيتى بفصله من عمله باعتباره عاقاً ، مما أدى به إلى الوقوع فى ضائقة مالية عنيفة إلى حد أنه كان يضطر فى تلك الفترة إلى استدانة بعض العملات الصغيرة ، ليدفعها أجراً للمواصلات لكى يحضر اجتماعات جمعية رافضى التجنيد .

وفى تلك الفترة توثقت صلة راسل بعدد من الأدباء من دعاة السلام كان من أبرزهم (د. هـ . لورنس) (وآلدوس هكسلى) ، كما تعرف فى تلك الفترة (بستانلى آنوين) الذى أصبح فيما بعد واحداً من أساطين النشر فى العالم ، وقد تحمس آنوين حماساً كبيراً لكتابات راسل واستغل صلاته الواسعة بأرباب النشر فى مختلف أقطار العالم لترويج هذه الكتابات وعلى وجه الخصوص فى ألمانيا ، حيث أصبح راسل يقرأ بها أكثر مما يقرأ أى فيلسوف إنجليزى آخر ، وهكذا غدا راسل يكسب عيشه من كتاباته ومقالاته ، بيد أنه ألفى نفسه فى قفص

الاتهام مرة أخرى عندما كتب مقالا فى « التريبونال » ، تنبأ فيه بالمجاعة والإضرابات عقب الحرب ، كما تنبأ فيه أيضاً بأن القوات الأمريكية سوف تحتل بريطانيا ، لقمع هذه الإضرابات ، وعلى الرغم من أن السلطات العامة كانت قد تعودت على تلقى الإهانات من برتراند راسل ، إلا أنها اعتبرت هذا المقال إهانة موجهة إلى بريطانيا نفسها ، وهكذا تلى هذا المقال فى ساحة المحكمة باعتباره دليل إثبات التهمة الموجهة إلى راسل ، وبرغم هذا ، فقد لقى المقال استحساناً وترحيباً شديداً من جمهور الحاضرين ، إلا أن هذا لم يمنع من إدانة راسل ، والحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور ، وقد رفض الاستئناف المقدم منه ونقل إلى سجن بريكستون لكى يقضى مدة العقوبة اعتباراً من مايو سنة ١٩١٨ .

ولم تذهب مدة السجن هدراً بطبيعة الحال ، فقد استغلها راسل أفضل استغلال فى القراءة والتأليف ، حيث كتب أثناء وجوده فى السجن « المدخل إلى الفلسفة الرياضية » .

وبعد إطلاق سراحه واصل الاعتماد على كتاباته كمصدر لرزقه ، حيث عنى فى تلك الفترة بدراسة العقل والمادة وتقريب الصلة بينهما ، كما يبدو فى كتابيه « تحليل العقل » و « معرفتنا بالعالم الخارجى » ، بيد أنه لم يفقد الاهتمام بالسياسة ، حيث كان من بين

ما يشغله آنذاك ، هو ما يشغل سائر الاشتراكيين البريطانيين ، وهو ذلك الحدث التاريخى المتمثل فى قيام الثورة الاشتراكية فى روسيا سنة ١٩١٧ ، وقد أتيحت له فرصة التعرف على الموقف فى روسيا عن قرب ، عندما قرر حزب العمال البريطانى تشكيل وفد لزيارة روسيا السوفيتية ، حيث قام راسل بإلحاق نفسه بالوفد كمراقب غير رسمى ، لكنه أصيب بخيبة أمل شديدة هناك ، فقد روعه إحساسه بأنه إزاء عالم قد فقد الحرية والإحساس بالجمال ، وأن ما يقال عن دكتاتورية البروليتاريا هو محض شعارات ، فالحقيقة كما أحسها هى أن روسيا تحت وطأة الدكتاتورية فحسب ، وفى هذا المجال كان من أوائل الذين قرنوا البلشفية بالعقيدة ، وأعلن أنه لن يكون راضيا عن قيام حكومة شيوعية فى بريطانيا إذا ما فرض وقامت .

ثم قرر راسل بعد صدامه المباشر مع البلشفية أن يعد العدة لرحلة أخرى إلى الصين ، بعد أن تلقى دعوة من القائمين على أمر جامعة بكين لإلقاء سلسلة من المحاضرات على طلابها ، وقد اصطحب فى هذه الرحلة الآنسة (دورابلاك) وهى فتاة آسرة نابضة بالحياة وكانت تصغره بكثير لكنها أصبحت فيما بعد مسز راسل الثانية .

وقد أبدى راسل اهتماماً كبيراً بالصين التى كان معجباً بحضارتها العريقة وكان من رأيه أنها لكى تنقذ نفسها من الانهيار فإن عليها أن

تلجأ إلى التدابير العسكرية والاشتراكية لكى تواجه الأخطار الخارجية والداخلية كما أن عليها فى نفس الوقت أن تضاعف الإنتاج وأن تصلح الأحوال الإدارية ووسائل المواصلات . .

وقد قابلت الصين بحفاوة بالغة هذا الاهتمام من جانب راسل بمشاكلها ، وأصدرت جامعة بكين صحيفة خاصة تحمل اسم برتراند راسل هى صحيفة « برتراند راسل جورنال » للعمل على نشر أفكاره ، بيد أن هذا المناخ « الصحى » الذى أحاط براسل جعله يفرط فى « صحته » ، مما أدى إلى إصابته بالتهاب رئوى حاد ، ونقل ما بين الحياة والموت إلى المستشفى الألمانى فى بكين ، حيث انتهزت الصحف اليابانية هذه الفرصة فنشرت خبر وفاته فعلا ، وهكذا قدر لراسل أن يقرأ نعيه وأن يتابع أخبار الاقتراحات التى قال بها البعض لتخليد ذكراه .

وعندما عاد إلى بلاده قرر أن يخوض المعركة الانتخابية فقام بترشيح نفسه سنة ١٩٢٢ منادياً بالأفكار العمالية ، ففى ميدان السياسة الداخلية ، نادى بتأميم المناجم والسكك الحديدية ، والتوسع فى الإنفاق على التعليم ، وفى مجال السياسة الخارجية نادى بالاعتراف الدبلوماسى بالاتحاد السوفيتى ، وبرفض معاهدة فرساى ، لكنه منى بالهزيمة أمام خصمه المحافظ .

وفى عام ١٩٢٧ خاض راسل تجربة جديدة وطريفة ، فقد قام بالاشتراك مع (دورا) بإنشاء مدرسة لكى يطبق فيها عمليا أفكاره النظرية فى التربية والتعليم ، بيد أنه أدرك فيما بعد أن إنشاء هذه المدرسة كان أمراً خاطئاً ، وهكذا نفض يديه منها ، كما أنهى زواجه من دورا فى الوقت نفسه ، ذلك أن وجه الاتفاق بينهما كان يكمن فى أن كلا منهما كان رافضًا للعرف المألوف ، لكن هذا الأمر نفسه هو الذى بين أن زواجهما لا يتجه إلى نقطة بعينها ومن ثم فإنه محكوم عليه بالفشل .

بيد أن طلاق راسل من دورا ، لم يكن ليعنى أنه قد رفض فكرة الزواج فى حد ذاتها ، فقد كان مقتنعاً بأهمية الزواج كمؤسسة اجتماعية تستهدف رعاية الأبناء على الأقل ، وإن كان يرفض أشد الرفض مجموعة الفضائل المحيطة بالزواج ، والتى تبناها العصر الفيكتورى كما يتضح فى كتابه « الزواج والأخلاق » الذى صدر سنة ١٩٢٩ ، وهكذا تزوج راسل للمرة الثالثة من إحدى الدارسات اللاتى ساعدته فى بحوثه العلمية وهى الآنسة (باتريشيا هيلين سبنس) .

وفى الثلاثينات من هذا القرن بدأ راسل ينشر كتبا ذات طابع عام ، منها كتاب « قهر السعادة » الذى أوضح فيه السبيل إلى السعادة كما يراه ، وكتاب « الدين والعلم » سنة ١٩٣٥ الذى أوضح

فيه أن عقل الإنسان ليس إلا إنجازًا عارضًا ومتواضعًا من منجزات الكون .

وفى الوقت نفسه تناول راسل الموضوعات الاقتصادية فى كتابه « امتداح الكسل » ١٩٣٥ الذى حث فيه على الإنفاق النقدى وهو المبدأ نفسه الذى توصل إليه جون ماينارد كينز – أحد تلامذة راسل النجباء .

وفى كتابه « الحرية والنظام » الصادر سنة ١٩٣٤ عارض راسل النظرية الماركسية القائلة بأن القوى الاقتصادية ، هى المحرك الوحيد للتطور ، وأما فى كتابه « القوة » الصادر سنة ١٩٣٨ ، فقد حاول أن يبين إلى أى حد يمكن أن تتم المصالحة بين حرية الفرد ، وبين القوة الاقتصادية للدولة ، وهذه الفكرة هى التى تناولها أيضًا فى كتابه « السلطة والفرد » .

وفى شتاء سنة ١٩٣٩ سافر إلى الولايات المتحدة للتدريس بجامعة نيويورك ، لكن خصومه تكتلوا ضده وطلبوا إلى القضاء منعه من التدريس نظراً لقلة تدينه وابتعاده عن الأخلاق القويمة فى رأيهم ، وقد استجاب القضاء الأمريكى لهذه المزاعم وأصدر حكماً بمنعه من التدريس برغم مناصرة كل من (آينشتين) و (هوايتهيد) و (ديوى) له .

وإزاء هذا ، عرض عليه الدكتور (ألبرت بيرنز) أحد المليونيرات الأمريكيين أن يلقى سلسلة من المحاضرات فى تاريخ الفلسفة لحساب مؤسسة بيرنز فى بنسلفانيا ، وقد تمخض عن هذه المحاضرات كتاب راسل الهام « تاريخ الفلسفة الغربية » ، الذى صدر بعد ذلك سنة ١٩٤٥ ، وقد استعرض راسل فى كتابه هذا عدداً من الفلاسفة باعتبارهم نتاجاً للظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بهم . وفى عام ١٩٤٨ سافر إلى النرويج لكى يحاضر بها فى موضوع « بعض الاقتراحات البناءة لتجنب حرب عالمية ثالثة » ، لكن السفينة التى كان يستقلها تعرضت للغرق وابتلع اليم تسعة عشر راكباً من ركابها على حين أمكن انتشال راسل وعدد آخر من الركاب ، وهم على قيد الحياة ، بيد أن هذا الحادث لم يمنع راسل من أن يستعير بعض الملابس الجافة من المجلس البريطانى ويواصل رحلته لإلقاء محاضراته وكأن شيئاً لم يحدث .

وفى عام ١٩٤٩ أنعمت ملكة بريطانيا على برتراند راسل بواحد من أعلى ألقاب التكريم ، ويالها من مفارقة أن تكرم بريطانيا رجلا أودعته السجن يوماً بتهمة توجيه الإهانة إليها .

وفى العام التالى منح جائزة نوبل للسلام ، وفى عام ١٩٥٢ انتهى زواجه الثالث بالطلاق ، ومع هذا فقد تزوج من (أديث فنش)

زوجه الرابعة برغم كبر سنه .

وفى تلك السن ، بدأ يؤلف القصص والروايات من أشهرها « المغامرات الكورسيكية للآنسة إكس » ، و « الشيطان فى الضواحى » ، و « عظماء وأحلام مزعجة » والتى نقدم ترجمتها فى الصفحات التالية تحت العنوان الوارد بالغلاف .

وقد قام طوال الخمسينات والستينات بقيادة حملة ضخمة ضد التجارب النووية مواصلا حملته من أجل السلام العالمى ، مما عرضه للسجن مرة أخرى عام ١٩٦٢ لمدة سبعة أيام نظرًا لقيامه بتحريض الجماهير برغم كونه عضوًا فى لجنة المائة بالبرلمان .

ثم واصل نضاله وهو فى أخريات عمره ، وكان من أبرز ما قام به بعد ذلك ، هو تأليفه لكتاب « جرائم الحرب الأمريكية فى فيتنام » ، وعقده محكمة جل قضاتها من المفكرين والفلاسفة لمحاكمة مجرمى الحرب الأمريكيين ، وقد أدانت المحكمة الطغمة العسكرية الأمريكية ، وعلى رأسها الرئيس الأمريكى ليندون جونسون ، وفى فبراير سنة ١٩٧٠ سكنت تلك المنظومة الرائعة التى امتزج فيها الفكر بالعمل ، والفلسفة بالحياة .

كابوس ملكة سبأ

كانت ملكة سبأ فى طريق عودتها ، بعد أن قامت بزيارة الملك سليمان ... راحت تمخر عباب الصحراء على ظهر حمار أبيض اللون ، وإلى جوارها كبير وزرائها على ظهر حمار ذى لون عادى ... أخذت – وهما على ظهرى الحمارين – تستعيد من خلال حديثها ، ما انطبع فى ذاكرتها حول ثروة الملك سليمان وحكمته ...

قالت : كم كنت أظن أنى قد أفلحت فى تحقيق مظاهر الفخامة الملكية ... وكم كنت آمل قبلا فى أن أتمكن من الاحتفاظ بما حققت ، لكننى عندما رأيت مقتنياته ، لم أستطع أن أكتم أنفاسى ... غير أن كنوز قصوره لا تساوى شيئا إذا ما قورنت بكنوز حكمته ، آه يا وزيرى العزيز .. يا للحكمة ، ويا للدراية بالحياة ... ويا للحصافة التى تشع من أحاديثه ... لو كان لك من الحصافة السياسية فى سائر بدنك مثل ما للملك سليمان فى إصبعه الخنصر ، لما كنا نعانى من أية متاعب كتلك التى نعانى منها فى مملكتى ... لكن

ليست الثروة والحكمة ، هما الأمرين الوحيدين اللذين لا يبارى فيهما ، فهو أيضاً –وربما كنت الوحيدة التى كان من حظها أن تعرف هذا الأمر – شاعر عظيم ... فعندما كنا على أهبة الفراق أهدانى مجلداً مرصعاً بالجواهر مكتوباً بخط يده الذى تستحيل محاكاته ، يتحدث فيه بلغة الجمال الرفيع عن المتعة التى أحس بها فى صحبتى ..

« هناك ثمة فقرات يتغنى فيها ببعض المواضع من فتنتى ، أخجل من أن أطلعك عليها ، غير أن هناك أجزاء أخرى من الديوان ربما أتلوها على مسمعك،إذ لعل هذا قد يساعد على طى ليالى رحلتنا هذه عبر الصحراء ... ، إنك لا تجد فى هذا الديوان الرائع كل تلك الكلمات التى تحب أى امرأة أن تسمعها من شفاه مفعمة بالحب فحسب .. ، لكنه من خلال عصارة التعاطف الخيـالى نسب إلىّ كلمات شعرية أمتلئ بالسعادة لسماعها ..

« ومرة أخرى أقول بأننى مقتنعة بأننى لن أعثر قط على مثل هذه الوحدة المتكاملة ، هذا التناغم المطلق ، هذا النفاذ إلى أعماق الروح ، ولئن كانت أعبائى العامة – ويالالأسف – تفرض على أن أعود إلى مملكتى ... فإننى مع هذا أذكر ما حييت ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن هناك رجلا جديراً بحبى فى هذا العالم » .

قال الوزير : يا صاحبة الجلالة ... ، ليس لى أن أثير الشكوك

فى صدركم الملكى ، لكن افتراض وجود رجل يتكافأ معكم ، هو أمر غير قابل للتصديق من جانب جميع من يخدمونكم .

وفى هذه اللحظة بدا من خلال ضوء الشمس الغارب شبح منهك يسير على قدميه .

قالت الملكة : من عساه يكون ؟

أجاب كبير الوزراء : لعله مجرد شحاذ يا صاحبة الجلالة ... ، إننى أنصحكم بكل شدة بأن تتجنبوه .

غير أن الكبرياء الذى لاح فى مظهر هذا الغريب المقترب منهما ، كان ينبئ بأنه ليس مجرد شحاذ ... ، وهكذا اتجهت بحمارها نحوه ، على الرغم من احتجاجات الوزير ، وسألته — من تكون ياترى ؟

وعندما أجاب ، تبددت هواجس كبير الوزراء ، إذ أنه استخدم فى إجابته تلك العبارات المهذبة للغاية المستخدمة فى بلاط سبأ ...

قال : يا صاحبة الجلالة ... اسمى « بيليزيبوب » ولعله اسم غير معروف لديكم ، لأنى نادراً ما أغادر أرض كنعان ... ، غير أنى أعرف من أنتم ، إننى لا أعرف من أنتم فحسب ، ولكنى أعرف من أين أتيتم ، وما هى الرؤى التى يوحى بها إليكم الغروب ... ، إنكم عائدون كما أعلم من زيارة ذلك الملك الحكيم ، الذى كان لسنوات طويلة صديقى الحميم ، ولا يغرنكم أن مظهرى الرث لا يتطابق مع

كلماتى ... إننى واثق بأنه قد كلمك عن نفسه بكل ما أراد لك أن تعرفيه ... ومع هذا فإذا كنت تريدين أن تعرفى عنه أشياء أخرى غير تلك التى رأى أن من المناسب أن يطلعك عليها ، فما عليك إلا ان تسأليني ، لأنه لا يخفى عنى سراً ....

قالت الملكة : إنك تدهشنى ... وأظن أن حوارنا سوف يكون طويلا ، ولن يكون مريحا أن نمضى فيه وأنا راكبة وأنت راجل ، لهذا فإن كبير وزرائى سوف يترجل ويتخلى عن حماره لك .

أذعن الوزير متبرماً .

وقالت الملكة : إننى أفترض أن محادثتك مع سليمان كانت تدور أساسا حول شئون الحكم والأمور التى تستلزم قدراً كبيراً من الحكمة ... وأننى كملكة لم أعدم الشهرة فيما يتعلق بالحكمة ، وقد تحدثت معه أيضاً فى هذه الموضوعات ... غير أن جانباً من أحاديثنا قد كشف عن جوانب غير معروفة عنه كغيرها بالنسبة لك فيما أتصور ، لا بالنسبة لى ، وإن كنت أتملق نفسى فى هذا على أضعف الإيمان ، ولقد ضمن شيئاً من أفضلها كتاباً أعطانيه ونحن على أهبة الفراق ... إن هذا الكتاب يشتمل على كثير من الروائع منها مثلا « وصف جميل للربيع » .

قال بيليزيبوب : آه ... وهل تكلم فى هذا الوصف عن صوت

الحمام البرى ؟

قالت الملكة : أجل ... ولكن لماذا ؟ وكيف خمنت هذا ؟ ..

أجاب بيليزيبوب : حسناً ... ، لقد كان فخوراً بأنه يلاحظ كلام الحمام البرى فى الربيع ، وكان يرغب فى تضمينه كتابه عندما يستطيع ذلك .

استطردت الملكة فى حديثها : لقد سرتنى بعض مدائحه بوجه خاص ... ولقد شعرت بسرور عندما قال لى « حديثك حسن » .

قال بيليزيبوب : رقة مشكورة منه ... لكن هل لاحظ فى الوقت نفسه أن وجنتى جلالتك مثل حبتى الرمان ؟

قالت الملكة : حقًا ، فعلا ... لقد بدا الأمر يغدو مخيفاً ... لقد لاحظ هذا واعتبرتها ملاحظة غريبة إلى حدٍ ما .. لكن كيف بربك استطعت أن تخمن هذا ؟

أجاب بيليزيبوب : حسنًا ... تعلمين أن سائر الرجال العظماء لهم أطوار غريبة ، وأحد أطواره الغريبة هو اهتمامه الخاص بالرمان ؟

قالت الملكة : حقًا ، فإن بعض مقارناته غريبة إلى حدٍ ما ، فلقد قال لى مثلا : إن عينى تشبهان بركتى أسماك من حشبون .

قال بيليزيبوب : إننى أعرفه حق المعرفة ... إنه يلجأ أحيانًا إلى عقد مقارنات أشد غرابة ... ألم يقارن أنف جلالتك ببرج لبنان ؟ .

قالت الملكة : يالله ... هذا أكثر مما ينبغى ... لقد عقد هذه المقارنة فعلا ... غير أنك تقنعنى بأنه لابد لديك مصدر وثيق للمعرفة أكثر مما كنت أتوقع .

أجاب بيليزيبوب : أخشى أن ما سأضطر إلى التصريح به قد يؤلم جلالتك بعض الشىء ... فالحقيقة أن بعض زوجاته قد كن صديقات لى : ومن خلالهن تسنى لى معرفته جيداً .

– حقاً ولكن كيف عرفت هذه القصيدة الغرامية ؟

– حسناً ، عندما كنا صغيرين ، حيث كان أبوه لايزال حيًّا ... اضطر إلى مواجهة بعض المتاعب ، إذ أنه وقع فى تلك الأيام فى حب ابنة فلاح ، ولم يستطع أن يقهر تمنعها إلا بفضل مواهبه الشعرية فقط ، ومنذ ذلك الوقت اعتقد أنه من الخسارة بمكان أن تذهب مواهبه الشعرية هباءً ، ومن ثم راح يتلو نسخة مكررة منها على جميع نسائه واحدة بعد الأخرى ، وهكذا ترين أن ما يقوم به ليس إلا مجرد تجميع ، كما لا بد أنك قد لاحظت لدى مغادرتك منزله . لقد استطاع بخبرة الممارسة الطويلة أن يجعل كل واحدة تتوهم أنها هى الأثيرة لديه ، وأنت يا سيدتى العزيزة آخر انتصاراته وأبرزها .

قالت : آه .. إننى لن أنخدع بعد ذلك أبداً بالغدر المتأصل فى

الرجل ، ولن أسمح أبداً لعبارات الغزل بأن تعمى بصيرتى ، فهل يخطر بالبال أننى ، أنا التى تعد أحكم امرأة فى طول مملكتى وعرضها ، قد سمحت لنفسى بأن أضلل هكذا .

قال بيليزيبوب : كلا يا سيدتى العزيزة ، لا تنكسرى إلى هذا الحد ... إن سليمان ليس أحكم الرجال فى سائر بلاد ممالكه فحسب ، ولكنه أحكم الرجال إطلاقاً ، وسوف يظل كذلك على مدى عصور لا تحصى ... ومن ثم فإن انخداعك به هو أمر لا يكاد يدعو إلى شىء من الإحساس بالعار .

قالت : ربما كنت محقًا ، غير أن الجرح الذى أصاب كبريائى سوف يستلزم شفاؤه وقتاً ...

أجاب بيليزيبوب : لكم أكون سعيداً إذا استطعت أن أعجل بالزمن اللازم للشفاء ، وما أبعدنى عن أن أحذو حذو مكائد هذا المستبد . لن يفيض فمى إلا بتلك الكلمات البسيطة التى تمليها مشاعر القلب التلقائية ، لك أنت ... أنت أيتها التى ليس لها نظير ... أيتها التى لا تقارن ... ، يا جوهرة الجنوب الفريدة ... ، لسوف أمنحك إذا سمحت لى بلسماً جديرًا حقًّا بما يتناسب مع قيمتك .

أجابت : إن كلماتك تسرى عنى ... لكن هل يمكن لك أن تجاريه فى أبهته ونعيمه ؟ ألديك قصر مثل قصره ؟ ... ، ألديك من

خزائن المعادن النفيسة مثل ما لديه ؟ ألديك مثل تلك الثياب المعبقة بروائح البخور والعطور؟ والأهم من ذلك كله ألديك من الحكمة مثل ما لديه ؟ .

أجاب : يا ملكة سبأ المحبوبة ... سوف أرضيك فيما يتعلق بكل نقطة من هذه النقاط ، إن لدى قصراً أكبر بكثير من قصر سليمان ، ولدى خزائن أعظم بكثير من خزائنه ... وأما ثيابى التى أعدها للمناسبات فهى متعددة تعدد النجوم فى السماء ... وأما عن الحكمة فإن حكمته لا تصل إلى مستوى حكمتى ... إن سليمان لايزال يدهشه أن الأنهار تصب فى البحر ومع هذا فإن البحر لم يمتلئ ... ، أما أنا فأعرف السبب وسوف أشرحه لك ذات مساء من أمسيات الشتاء الطويلة ... ، لكن دعينى الآن أعرض لهفوة خطيرة ، لقد قال لك غداة أن قابلك ، « لا جديد تحت الشمس » ، مقارنة ظالمة بينك وبين ابنة الفلاح تلك التى عرفها فى شبابه ؟ ... ، وهل يعد حكيماً ذلك الذى أتيح له أن يلمحك ثم لا يتملكه الاقتناع بأنه لا يمكن أن يكون بعد هذا جمال ولا جلال ؟ ... ، كلا ، إننى لا أخشى منافسته فى مجال الحكمة .

أدارت الملكة عينيها إلى بيليزيبوب فى بسمة تحمل فى طياتها ما يشبه التخلى عن الماضى ، وما يشبه التطلع إلى الأمل المشرق

الواعد بمستقبل أكثر سعادة ..

قالت : كلماتك تخلب لبي ... لقد قطعت رحلة طويلة من مملكتي إلى مملكة سليمان ، ولقد ظننت أني رأيت فيها ما كان جديراً حقاً بأن يُرى على هذه الأرض ، غير أنك إن كنت تقول الحقيقة فإن مملكتك وقصرك وحكمتك تتجاوز جميعاً مالدى سليمان ... ، هل لى أن أجعل رحلتى تمتد بزيارة إلى أراضيك ؟

رد على ابتسامتها بابتسامة ظاهرها الحب المجرد ، وباطنها الإحساس بالانتصار ، وأجاب : لا يمكن أن أتخيل متعة لى أكبر من هذه المتعة . إذا أتيحت لى فرصة أن أضع ثرائى المتواضع تحت أقدامك ... ، فلنذهب الآن وما زال الليل فى أوله ... إن الطريق صعب وحالك وملىء بقطاع الطرق القساة وإذا كنت تنشدين الأمان فعليك أن تثقى تماماً بقيادتى ...

قالت : سأفعل ... لقد منحتنى أملا جديداً .

* * *

كانا فى تلك اللحظة قد بلغا عدداً لا يحصى من الكهوف القائمة فى حضن الجبل .. رفع بيليزيبوب شعلة مضيئة وهو يقود المسيرة عبر الأنفاق والممرات المتعرجة ... ، ثم ولجوا إلى ردهة فسيحة تضيئها مصابيح لا تحصى ... ، وكان السقف والجدران متلألئة بما بها من

أحجار كريمة تعكس سطوحها المتألقة ما يسقط عليها من الأضواء ... ، وقد صفّت على الجدران ثلاثمائة تاج من الفضة على نحو بارع .

قالت الملكة : إن هذا رائع حقًّا ...

فقال بيليزيبوب : ما هذا إلا قاعة الاستقبال ذات المرتبة الثانية ، وسوف تشاهدين الآن قاعة المثول ...

وعندئذ قام بفتح باب خفى واقتادها إلى قاعة أخرى كان اتساعها يتجاوز ضعف اتساع الأولى وأنوارها تربو على الضعف . وما بها من الجواهر يربو على الضعف ... ، وحول ثلاثة من جدرانها كان هناك سبعمائة من التيجان الذهبية ... ، وأما الجدار الرابع فقد كان به تاجان مرصعان تماما بالأحجار الكريمة من ماس وياقوت أحمر وأزرق ولآلئ ، وقد نسقت جميعاً إلى جوار بعضها البعض بطريقة فنية غريبة استعصت على إدراك الملكة ...

قال : هذه هى قاعتى العظيمة .. أما عن التاجين فإن أحدهما لى والآخر سوف يكون لك ...

قالت : حسناً من سيحمل التيجان السبعمائة الذهبية ؟

قال : حسنا ستعرفين هذا فى أوانه .

وما إن قال هذا حتى بدا شبح ملكة أقل قليلا فى الفخامة من

ملكة سبأ ، وشغل مكان التاج الأول من التيجان الذهبية ، واعترى ملكة سبأ نوع من القشعريرة عندما تبينت فيها أقرب زوجات الملك سليمان وأكثرهن حظوة لديه .

قالت وقد اعترتها رعشة خفيفة : لم أكن أتوقع أن أقابلها هنا .

قال بيليزيبوب : حسناً ... ، هأنتذى ترين أن لدى قوى سحرية ، فبينما كنت أتودد إليك ، كنت أقول لهذه السيدة الطيبة إن سليمان فى حقيقة أمره ، ليس كما يبدو ، ولقد استمعت إلى كلماتى كما استمعت أنت ثم جاءت ...

وما إن أوشك على الانتهاء من كلامه ، حتى لاحت سيدة أخرى تبينت فيها ملكة سبأ أنها أيضًا إحدى زوجات الملك سليمان اللاتى عرفتهن فى زيارتها .. خطت السيدة إلى داخل الصالة وشغلت مكان التاج الثانى ... ، ثم جاءت ثالثة ورابعة حتى بدا أن هذا التعاقب لن ينتهى ، غير أنه فى النهاية تم شغل التيجان السبعمائة ...

قال بيليزيبوب : فى عبارات ناعمة : لعلك تتساءلين عن الثلاثمائة تاج الفضية .. لقد تم شغلها الآن بمحظيات الملك سليمان ...

إن الألف جميعهن اللائى هن هنا فى هذه القاعة أو فى القاعة الأخرى ، قد استمعن منى إلى عبارات لا تختلف عن تلك التى

استمعت أنت إليها ، وقد اقتنعن جميعاً بما أقول ، وها هن جميعًا هنا ...

صاحت الملكة : أيها الوحش الغادر ... ، كيف واتتنى السذاجة ... ، بحيث أنخدع للمرة الثانية ؟ . منذ الآن سوف أحكم بمفردى ولن أتيح الفرصة لأى رجل آخر أن يخدعنى ... ، وداعاً أيها الكريه ... ، وإذا كان لك أن تطأ حدود مملكتى يوماً فسوف تلقى الجزاء الذى يستحقه مثلك .

أجاب بيليزيبوب : كلا أيتها السيدة الطيبة ... ، أخشى أن تكونى غير مقدرة لحقيقة الموقف ... ، لقد هديتك إلى طريق المجىء إلى هنا ... ، أما طريق الذهاب ، فإننى وحدى الذى أعرفه ... إن هذا هو مقرك حتى نهاية العمر ، وسوف تبقين هنا إلى الأبد ... غير أنك لن تبقى إلى الأبد متحلية بالماس إلى جانبى ، فسوف تشغلين هذا المكان مؤقتًا إلى أن تزيحك منه مليكة أكثر بهاءً . إنها آخر ملكات مصر .

بعثت هذه الكلمات فى نفسها بركانًا من الغضب واليأس جعلها تستيقظ . قال كبير الوزراء : أخشى يا مولاتى .. أن تكونى قد عانيت من بعض الأحلام المزعجة .

كابوس السيد باودلر

السيد باودلر ذلك الكاتب المحمود السيرة ، مؤلف « شكسبير للأسرة » والتى يمكن لأشد السيدات الشابات طهرًا أن تقرأها دون أن يحمر وجهها خجلا ... ، لم يكن فى حياته اليومية ليستشعر أى نوع من الشك فى مدى فائدة أعماله ... ، ومع هذا فلعل صوتاً ضئيلا مازال متربصًا فيما يبدو فى مكانٍ ما من أعماق هذا الرجل الطيب ... ، صوتاً قوامه الهجاء والسخرية .

كان من عادته فى أيام الآحاد أن يقوم بتوزيع لحم الخنزير على أفراد أسرته ، فيعطى كل واحد نصيبه ويمنع نفسه من أى قدر ولو ضئيل منه ، وإلى جانب اللحم ، كانت الأسرة تتناول البطاطس المسلوق والكرنب ، ثم تتبع هذا بتناول فطيرة من البودنج ... ، ثم يتناول هو وحده دون بقية أفراد الأسرة قدراً معقولا من الجعة . وما إن تفرغ الأسرة من الوليمة حتى يهب لمزاولة عادة التجول على الأقدام لفترة قصيرة .

وفى مرة من المرات كان الصقيع والجليد يتساقطان بعنف ، مما جعله يعدل عن روتينه المألوف ، ويهجع فى مقعده ليطالع كتاباً جيداً ، غير أن الكتاب الجيد لم يكن مشوقاً جداً مما جعله يغرق فى النعاس . وفى أثناء نعاسه داهمه الكابوس التالى :

كان العالم كله – ومايزال – يعتقد أن السيد « باودلر » نموذج لكل الفضائل ، ومع هذا فقد حدث أن توافر لديه سبب يجعله يشك إن كان حقاً كما يتصوره جيرانه ، ذلك أنه فى صباه كتب هجوماً قاسياً على « ويلكز » (صاحب ولكز والحرية) والذى اعتبره – دون أن يفتقد المبررات الكافية – إنساناً داعراً .

كان « ويلكز » فى ذلك الوقت قد تقدم به العمر ، ولم يعد قادراً على الانتقام الذى كان من الطبيعى أن يقوم به لو كان فى صباه ، لهذا أوصى بمبلغ كبير من المال بعد وفاته إلى الشاب اليافع السيد (سبيفكتز) مقابل شرط واحد هو أن يعمل السيد سبيفكتز قدر المستطاع على جلب مصيبة للسيد باودلر . وإننا لنأسف إذ نقول إن السيد سبيفكتز قد قبل هذه الوصية اللا أخلاقية بلا تردد . وحتى يتسنى له تنفيذ شروط وصية ويلكز قام تحت ستار ادعاء الصداقة بزيارة للسيد باودلر حيث وجده فى غاية السعادة وهو ينعم بنعمة الأسرة فى أكمل صورها ، كان قد جعل على كل واحدة من ركبتيه

واحداً من أبنائه وهو يؤرجحها ويقول لهما « امتطيا حصانكما وامضيا إلى تقاطع بانبيورى » فى حين أخذ طفلان آخران يهتفان « جاء الآن دورنا ... يا بابا » ثم حصلا بدورهما على نصيبهما من نشوة الأرجوحة . وأما زوجته مدام باودلر تلك السيدة البدينة الطيبة القلب ، فقد راحت تراقب فى ابتسام هذا المنظر البهيج ، وهى منهمكة فى إعداد الشاى .

استطاع السيد سبيفكتز بما لديه من الفطنة البارعة – تلك التى جعلت اختيار السيد ويلكز يقع عليه – أن يدير دفة الحديث إلى تلك الموضوعات الأدبية التى يعلم أنها أثيرة إلى قلب السيد باودلر ، وأن يناقش المبادئ التى دفعت بهذا السيد المهذب إلى أن يجعل من أعمال الرجال العظماء أمرًا لا يليق وضعه بين أيدى النساء حديثات السن ، وهكذا حدث التوافق التام الذى ساد إلى أن انتهيا من تناول الشاى وتهيأ السيد سبيفكتز للانصراف ، حيث كانت مدام باودلر فى تلك اللحظة تبدو من خلال باب المطبخ المفتوح وهى تغسل أطباق الشاى .

ومع تحية الوداع قام السيد سبيفكتز بتوجيه الملاحظة التالية :

لقد تأثرت كثيرًا يا عزيزى باودلر بنبضات حياتكم العائلية ، غير أننى نتيجة للدراسة الدقيقة التى قمت بها لكافة الأجزاء التى عمدتم

إنى حذفها من أعمال شاعر آفون المغرد[1] ، فإننى أجد نفسى مضطراً لأن أخلص بنتيجة مؤداها : أن هؤلاء الأطفال الباسمين ، إنما يرجع الفضل فى وجودهم إلى البارثينوجينيسيس[2] .

عندئذ صاح السيد باودلر وقد علت وجهه حمرة الغضب الشديد :

اغرب عن وجهى ... ، ثم صفق الباب بعنف فى وجه السيد سيفكتز ... ، لكن يا للأسف فلقد تسربت هذه الكلمة المرعبة إلى مسامع مدام باودلر على الرغم من صلصلة أكواب الشاى ... ، ولم تستطع أن تدرك معناها ، غير أنها مادامت لم تعرف ماذا تعنى ، ومادام زوجها قد استنكرها ، فلم يعد لديها شك فى أنها لابد أن تكون كلمة رديئة ، وأنها ليست من تلك الموضوعات التى يمكن أن تسأل زوجها عنها إذ أنها لو فعلت ، لما زاد على أن يقول « يا عزيزتى إنها تعنى شيئاً لا يجوز لأى امرأة فاضلة أن تفكر فيه » وهكذا فإن الأمر قد أصبح متوقفاً على مجهوداتها الخاصة . إنها تعرف كل شيء عن معنى النصف الثانى من الكلمة وهو « جينيسيس »[3] أما

(١) يقصد بذلك الشاعر شكسبير (المترجم) .

(٢) البارثينوجينيسيس Parthenogenesis أى التوالد العذرى أو البتلى مصطلح علمى يعنى التكاثر بدون تلقيح أى بدون إخصاب الذكر للأنثى (المترجم) .

(٣) جينيسيس gensis تعنى فى اللغة الإنجليزية التكوين .

النصف الأول ، بارثينو ، فقد ظل معناه غامضًا بالنسبة لها ، وهكذا استجمعت شجاعتها ذات يوم وتسللت إلى مكتبة زوجها عندما كان فى الخارج وأخرجت منها القاموس التقليدى وراحت تقرأ كل ما هو مكتوب فيه عن البارثينون ومع هذا فقد ظل معنى هذه الكلمة الغامضة يروغ بعيداً عن متناول إدراكها ، ذلك أن القاموس لم يورد شيئًا عن البارثينون فى الجزء الخاص بالجينيسيس ، كذلك لم يورد شيئاً عن الجينيسيس فى معرض حديثه عن البارثينون ... وكلما زادت مساعيها إحباطاً تضاعف التوجس والقلق الذى يسبب لها هذا الموضوع ، وبدأ الإهمال يدب إلى أعمالها المنزلية التى كانت قبلا بالغة الإتقان ، وراحت الأفكار تتملكها إلى حد أنها نسيت ذات يوم من أيام الأربعاء أن تقدم الجمبرى مع الشاى ، وهو مالم تغفل عنه قط فى أى يوم أربعاء منذ ذلك اليوم السعيد ، الذى ارتبطت فيه مع السيد باودلر برابطة الاتحاد المقدس .

ثم ازداد الوضع سوءًا بحيث شعر السيد باودلر فى النهاية بضرورة استدعاء طبيب للعلاج . وقد قام الطبيب بطرح أسئلة عديدة ، ثم طرق جبهة مدام باودلر بمطرقة خشبية صغيرة ، كما جس أورامها ، ثم قام بفصدها ، غير أن هذا كله كان هباءً .

قال فى النهاية : حسناً ... أخشى أن يكون العلاج الوحيد

لشكواك يا سيدتى العزيزة هو الإيداكس ريروم[1] (كان يقصد الزمن على سبيل الحذلقة) ... علينا أن نعلق رجاءنا على الزمن ، ذلك الشافى العظيم .

قالت مدام باودلر : خبرنى بالله عليك يا عزيزى الطبيب ، أين يمكن الحصول على الإيداكس ريروم ؟ .

أجابها الطبيب : فى كل مكان .

وعلى الرغم من أنها لم تكن تثق فى حكمته كثيرًا ، إذ أنها لم تكن قد أفضت إليه – برغم هذا كله – بمصدر بلواها ، إلا أنها ذهبت إلى صيدلى الأسرة ، وطلبت منه أن يعطيها شيئاً من الإيداكس ريروم ، عندئذ احمر وجهه وتلعثم وهو يقول : يا سيدتى ليس هذا بالشىء الذى ينبغى أن تطلبه السيدات الطيبات ، فما كان منها إلا أن رجعت وهى فى غاية الارتباك .

ولما كان مسعاها قد خاب فى اتجاه معين فقد دفع بها اليأس إلى أن تبذل محاولة للسعى فى اتجاه آخر .

كان من بين أعباء زوجها أن يعمد إلى قراءة تلك الكتب التى يرغب فى كبت جموحها وهكذا قامت باستعراض القوائم التى

(١) ايداكس ريروم Idax Rerum عبارة لاتينية تعنى الشىء الذى يلتهم دائماً كل شىء .. (المترجم) .

وجدتها فى درج مكتبه بأسماء باعة الكتب ، حيث توقفت عند اسم وعنوان واحد منهم ، توسمت فيه من خلال نوعية الموضوعات التى يطرحها على السيد باودلر أنه هو الذى يمكن أن توجد لديه أعمال أدبية من ذلك الطراز الفظيع الذى ثار اهتمامها حوله .

وضعت على وجهها حجاباً سميكاً ، وغامرت بالذهاب إلى مدخل المكتبة ، ثم سألته فى شجاعة « سيدى أريد كتاباً لأتثقف فى موضوع البارثينوجينيسيس » .

أجابها وهو يتأمل تلك المفاتن التى لم يستطع الحجاب أن يخفيها .

« سيدتى ... ، إن البارثينوجينيسيس ، هو ما لن تتعلمى عنه شيئاً إلا إذا صعدت معى إلى الغرفة العليا » .

وعندئذ أصابها هلع شديد فانفلتت هاربة .

لم يعد لديها الآن إلا أمل واحد ، أمل يتعلق بذلك الحل اليائس الذى طالما كانت تشك فى أن لديها من الشجاعة ما يكفى لتحقيقه ... إنها تذكر أن زوجها عندما شرع فى إكمال كتابه « شكسبير للأسرة » تلك النعمى التى قدمها لكل ربة بيت مهذبة ، قد اضطر – بالغاً ما بلغ العبء من الألم بلا شك – إلى قراءة تلك الأعمال غير المهذبة لذلك المؤلف الذى تدعو كتاباته الفاضحة إلى الأسف ، كانت تعرف أنه يقتنى خلف تلك الأبواب المغلقة لدولاب

الكتب صندوقاً به مؤلفات « شكسبير فى مرحلة ما قبل باودلر » وقد عمد إلى وضع خطوط تحت كافة العبارات التى رأى أن من المناسب حذفها تيسيراً على المختص بالطباعة فى قيامه بمهمته .

قالت لنفسها إنه حيث توجد أجزاء كثيرة محذوفة فلابد أن تكون كلمة بارثينوجينيسيس من بين تلك العبارات التى تحتها خط ، وسوف أستطيع بغير شك أن أفهم معنى الكلمة من خلال السياق .

وذات يوم – وعندما كان زوجها مدعوًّا لحضور مؤتمر لأصحاب المكتبات الفاضلة – دلفت إلى مكتبه واستطاعت بعد شىء من البحث والتنقيب أن تجد مفتاح الصندوق فى درج مكتبه ، فقامت بفتح الأبواب الرهيبة وأخرجت المجلد البالى بما يحويه من معرفة مفزعة ، وراحت تقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى ، غير أن الكلمة المنشودة لم يكن لها أى ذكر فى أى موضع ، فى حين وجدت بدلا منها أشياء كثيرة لم يكد يدور بخلدها أن تبحث عنها ... ارتعبت فى البداية ثم شدتها الموضوعات إليها ثم أحجمت وقاومت ، ثم استسلمت فى النهاية واندمجت فى القراءة وقد غفلت عن مرور الوقت .

وفجأة انتبهت إلى أن الباب مفتوح وأن زوجها واقف فى فتحة الباب وهو يتساءل مأخوذاً « أى مجلد هذا الذى أراه بين يديك

يا مارى ... ، ألا تعرفين أن السم الزعاف يقطر من بين صفحاته ، وأن عدوى الأفكار الداعرة تقفز من كل حرف فيه إلى ذهن الأنثى الغافل ... ، هل نسيت أن مهمتى فى الحياة هى حماية ذوى البراءة من مثل هذا التلوث ... ، هل كتب علىّ أن يحل هذا الفشل الرهيب على فى عقربيتى ...

انهمرت دموع الرجل الطيب وهو يردد هذه الكلمات ... انهمرت دموعه مفعمة بالحزى والأسى ... ، بل وبالغضب الصارخ كذلك .

أحست بخطيئتها بغتة ، وتركت المجلد يسقط من يديها ، وانفلتت إلى حجرتها ، وانفجرت شهقاتها وزفراتها التى تمزق نياط القلوب .

لم يكن إلى التوبة من سبيل فقد قرأت كثيراً ولم يكن بوسعها أن تنسى كلمة واحدة مما قرأته ، راحت الكلمات المخزية ، والدعابات البغيضة تدور بصورها المفزعة فى رأسها ، وساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، أصبحت تتسلط عليها تماماً حتى تحول الأمر فى النهاية إلى نوع من الجنون الذى لا يمكن السيطرة عليه ، مما أدى إلى اقتيادها إلى مصحة للأمراض العقلية ، حيث راحت وهى فى الطريق تردد على مسامع الملأ بصوت مرتفع عبارات شكسبير الفاحشة .

وعندما غابت كلماتها الأليمة ، ولم تعد تسمع خر السيد بادولر على ركبتيه يسأل الخالق الأعلى عن أى خطيئة جناها قد نزل به هذا العقاب ولم يكن – مثلى أو مثلك – قادراً على أن يجد الجواب .

كابوس المحلل النفسانى

قدر الثوار أن يجدوا متعصبين جداً ... أما كيف ينطبق هذا على التحليل النفسى ، فهو ما تناوله الدكتور (روبرت ليدرز) بشكل مقنع فى كتابه « روشتة للثورة » .

ينبغى على المرء أن يفترض أن كثيرًا من المحللين النفسانيين لديهم شكوكهم السرية ، ولقد كان هذا هو الحال بالنسبة لواحد منهم ، كان يبدو متعصباً فى لحظات يقظته ، غير أنه عندما أخلد إلى النوم داهمه الكابوس التالى والذى كان بالغ الإزعاج .

فى قاعة نادى روتارى ليمبو الذى يتصدره تمثال شكسبير ، انعقد الاجتماع السنوى للجنة الأعضاء الستة .

كانت اللجنة مكونة من هاملت ، ولير ، وماكبث ، وعطيل ، وأنطونيو ، وروميو ، أولئك الذين قام طبيب ماكبث الدكتور (بومبا ستيكوس) بتحليلهم نفسيًّا عندما كانوا مايزالون على قيد الحياة .

كان ماكبث قبل أن يعلمه الطبيب طريقة الكلام باللغة الإنجليزية المألوفة ، قد وجه إليه السؤال التالى باللغة المتحذلقة « أو

ما تستطيع شفاء ذهن معتل » ؟ .

أجاب الطبيب : بلى يا سيدى ... ، أستطيع طبعاً . ما عليك إلا أن تستلق على الأريكة وتتكلم ، وسوف أتعهد بأن أنصت إليك فى مقابل جنيه لكل دقيقة . ووافق ماكبث مرة على ذلك فى حين وافق الخمسة الآخرون على ذلك عدة مرات . وقد تكلم ماكبث عن فكرة الانتحار التى راودته ذات مرة ، وكيف رأى خلال حلم طويل كل ما يرويه شكسبير . وكيف أنه – لحسن الحظ – قابل الطبيب فى الوقت المناسب ، حيث أوضح له أنه يرى فى (دنكان) صورة أبيه وفى الليدى ماكبث صورة أمه ، وقد أقنعه الطبيب بشىء من الصعوبة أن دنكان ليس أباه حقًّا ، ومن ثم صار تابعاً مخلصًا .

مات (مالكولم ودونا لبين) فى سن مبكرة وخلفهما ماكبث بعد فترة مناسبة حيث ظل وفيًّا لليدى ماكبث ، وقضيا وقتهما معًا فى فعل الأفعال الطيبة ، فهو يشجع الكشافة ، وهى تفتتح الأسواق ، وقد عاش عمرًا طويلا يحوطه الاحترام من الجميع .. تكلم التمثال الذى كان مزوداً بجهاز تسجيل فى جوفه وقال معقباً على هذه المرحلة « إن أيامنا الماضية جميعها قد أنارت للحمقى سبيلهم إلى الموت الكريه » .. حينئذ انتفض ماكبث قائلا : أف لهذا التمثال ، هذا الشخص شكسبير ، قد ألف كتاباً من القذف الشنيع فى حقى ، إنه

لم يعرفنى إلا حينما كنت صغيراً وقبل أن أقابل الدكتور بومبا ستيكوس ، لكنه سمح لخيالاته أن تعربد حول كل تلك الجرائم التى كان يأمل أن أكون قد ارتكبتها ، إننى لا أفهم لماذا يصر الناس على تكريمه إذ لا يكاد يوجد شخص واحد فى مسرحياته ، لا يصلح للدكتور بومبا ستيكوس ثم استدار إلى لير قائلا : ألا توافقنى على هذا أيها الشيخ ، كان لير شخصًا وديعًا ليست لديه رغبة كبيرة فى الكلام ، وعلى الرغم من كبر سنه فقد كان شعره مصففاً بطريقة جميلة كما كانت ملابسه بالغة التناسق . كان يبدو أقرب إلى النعاس طيلة الوقت ، غير أن سؤال ماكبث أيقظه فجأة فقال : أجل إننى أتفق معك حقًّا ... ، أتدرى لماذا ... ؟ هل تعلم أننى أصابتنى ذات يوم وساوس قهرية إزاء ابنتىَّ العزيزتين (ريجان وجونريل) ، وتصورت أنهما تضطهداننى ، وتوهمت أنهما ستقومان بإحياء طقوس آكلى لحوم البشر لكى تلتهما والدهما ؟ ، وهذا الأمر الأخير لم أتبينه إلا بعد أن أوضحه لى الدكتور بومبا ستيكوس ، وهكذا أصابنى الانزعاج إلى حد أنى هرعت خارجًا تحت وطأة العاصفة فى الليل ، حتى ابتللت تماماً ، وأصابتنى الرعشة التى ترتب عليها إصابتى بالحمى ، وخيل إلىَّ أن هناك مقعداً مشتركاً تجلس عليه جونريل ثم ريجان ، ثم ازداد وضعى سوءًا لحماقتى ونتيجة لآراء رجل واضح

الجنون كان ينادى بمبدأ العودة إلى الطبيعة ، وكان دائم الحديث عن أشياء لا صلة بينها من قبل « بيليكوك » والطفل « رولان » ولحسن حظى كان مرضى من ذلك النوع الذى يحتاج إلى خدمات الدكتور بومبا ستيكوس الذى سرعان ما أقنعنى أن ريجان وجونريل كانتا أطيب مما تصورت ، وأن أوهامى كانت نتيجة لتأنيب الضمير الذى أعانى منه إزاء الجاحدة « كورديلا » . ومنذ أن عالجنى ظللت أعيش حياة هادئة ، ولا أظهر إلا فى المناسبات الرسمية مثل عيد ميلاد « ابنتى » . حيث أبدى نفسى فى إحدى الشرفات فى حين تأخذ الجماهير فى الهتاف .

وعند هذه النقطة هتف التمثال معقباً « أنت ، أيها الرعد الذى يهز كل شىء ... فلتوجه ضربات مطرقتك إلى هذا العالم المتكور حتى يصبح منبسطاً » .

وتساءل ماكبث : وهل أنت الآن سعيد ؟

أجاب لير : أجل إن سعادتى تعادل فى امتدادها امتداد النهار . إننى أجلس فى مقعدى متذرعاً بالصبر أو أخلد إلى النعاس ثم لا أفكر فى شىء أيًّا كان .

التمثال : « بعد أن كانت الحياة حمى متقطعة ... ينام الآن نومًا طيبًا .

قال لير : يالها من ملاحظة سخيفة ... ، إن الحياة ليست حمى متقطعة وإننى أنام نوماً طيباً برغم أنى لم أزل على قيد الحياة ... ، إنْ هذا ما هو إلا من ذلك النوع من الهراء الذى ربما كنت أعجب به قبل أن أعرف الدكتور بومبا ستيكوس .

عندئذ سمح التمثال لنفسه أن يبدى ملاحظة أخرى ، « عندما نولد يتنابنا الصراخ لأننا أتينا إلى هذا المسرح الهائل من الحمق » .

صاح لير : وقد زايله هدوءه الذى ظل حتى الآن مستمسكاً به :

مسرح الحمق كنت أود أن يتعلم التمثال كيف يتكلم كلاماً معقولا ... هل يجرؤ على أن يصفنا بالحمق ، نحن أكثر المواطنين احتراماً فى ليمبو ... ، إننى أود لو أن الدكتور بومبا ستيكوس قد أجرى إحدى محاولاته مع التمثال ؟ ما رأيك فيه يا عطيل ؟

أجاب عطيل : حسناً ... إن هذا الوضيع شكسبير قد عاملنى معاملة أسوأ مما عاملك به أنت وماكبث ، إننى لم أقابله إلا منذ أيام ، حيث تصادف أنى فى تلك الفترة أجتاز أزمة فى حياتى ، كنت قد ارتكبت خطأً بزواجى من فتاة بيضاء ، وسرعان ما اكتشفت أن من المستحيل بالنسبة لها ، أن تحب رجلا ملوناً حباً حقيقياً . وفى الوقت الذى عرفنى فيه شكسبير ، كانت هى فى الواقع قد أخذت

تعد عدة الحرب مع اليوزباشي «كاسيو» الذى يعمل تحت إمرتى ، ولقد شعرت بالابتهاج لهذا الأمر لأنها كانت قد غدت كالكابوس بالنسبة لى ، لكن شكسبير تصور أننى لابد أن أكون غيوراً ، ولما كنت مولعًا فى تلك الفترة بالبلاغة إلى حدٍ ما ، فقد قمت بتأليف بعض الأحاديث الغيورة لكى أدخل على نفسه السرور ، أما الدكتور بومبا ستيكوس الذى قابلته فى تلك الفترة فقد أوضح لى أن جوهر المشكلة يكمن فى إحساسى بعقدة التخلف الناتجة عن أنى أسود اللون ... ، إننى كنت فى عقلى الظاهر أشعر دائماً بأنه شىء طيب أن يكون المرء أسود اللون ، وأن سواد اللون وحده خير من ذيوع الصيت ، غير أنه أوضح لى أننى أشعر بمشاعر أخرى فى عقلى الباطن ، وأن هذه المشاعر هى التى تسبب لى نوعًا من الهياج لا يمكن التنفيث عنه إلا فى المعارك . وبعد أن عالجنى أقلعت عن الحرب ، وتزوجت امرأة سوداء وأصبحت لى أسرة كبيرة وتفرغت للتجارة .

إننى لا أشعر الآن بأى رغبة فى الحديث بلهجة متعاظمة أو أن أتفوه بذلك الهراء الذى يجعل المواطنين العاديين يحملقون منبهرين .

التمثال : يا للكبرياء ... ، يا لفخامة الاحتفال بالحرب المجيدة ...

قال عطيل : أنصت إليه ... ، تلك هى العبارات التى ربما

كنت سأظل أرددها لو لم أعرض نفسى على الدكتور بومبا ستيكوس ... إننى الآن لا أومن بالعنف ، وأرى أن الدهاء المستكين أكثر فاعلية ...

غمغم التمثال : « لقد أمسكت بعنق الكلب المختون » ... فأبرقت عينا عطيل فجأة وصاح « يا للتمثال اللعين ، سوف أمسك بعنقه إن لم يكف » .

تساءل أنطونيو الذى كان قد ظل صامتاً حتى هذه اللحظة :

لكن هل تحب زوجتك السوداء كما كنت تحب « ديدمونه » ؟

قال عطيل : حسناً ... ، تلك مسألة مختلفة كما تعلم ... ، إنها علاقة أكثر نضجاً ، وأكثر اتساقاً مع واجباتى العامة . ولا يشوبها شىء من الطيش ، إنها لا تغرينى بإتيان تلك الأفعال التى ينبغى أن يتحاشاها أعضاء الروتارى الأفاضل .

تكلم التمثال معقباً « لو أن الموت يجىء الآن ، كنا نغدو الآن فى قمة السعادة » .

قال عطيل : أنصت إليه ... ، هذا النوع من الملاحظات ، هو ما عالجنى منه البروفيسور بومبا ستيكوس فالفضل إليه ، إلى ذلك الذى لا يمكن أن أوفيه حقه من الشكر ، غير أننى تخلصت الآن من أمثال هذه المشاعر المطبقة ، إن مدام عطيل ذات روح خيرة ، فهى

تطهو لى طعاماً طيباً ، وهى تعنى بأولادى ، وهى تدفئ لى نعالى ، فما الذى يبغيه أى رجل عاقل من زوجته أكثر من ذلك ...

غمغم التمثال :«فلتطفئ الأنوار ... ، ثم فلتطفئ الأنوار» ... ، استدار إليه عطيل قائلا : لن أنبس بكلمة أخرى إذا لم تكف عن مقاطعتى ، لكننا نود أن نستمع إلى حكايتك يا أنطونيو ... قال :

أنطونيو – حسنًا أنتم هنا جميعًا تعرفون طبعًا تلك الأكاذيب غير العادية التى رواها شكسبير عنى ... ، لقد حدث منذ وقت ليس بالبعيد ، أن طرأ على ذهنى أننى أرى فى كليوباترا صورة أمى التى لم يكن غشيانها محرمًا علىّ ، أما قيصر فقد كنت أتمثل فيه شخص أبى دائماً ، لهذا فإن صلتى بكليوباترا جعلت من تصورى إياها أمًّا لى أمرًا ليس بالخارج على المألوف . بيد أن شكسبير قد نجح نجاحاً كبيراً خدع به حتى المؤرخين الجادين فى زعمه بأن هيامى بها قد دام ملتهباً ، وأنه انتهى بى إلى الدمار ، ولم يكن هذا صحيحاً بطبيعة الحال ، أما الدكتور بومبا ستيكوس الذى التقيت به إبان معركة أكتيوم ، فقد أوضح لى مؤثراتى اللا شعورية ، وسرعان ما أدركت بفضله أن كليوباترا لا تتمتع بالمفاتن التى كنت أخلعها عليها ، وأن حبى لها لم يكن إلا مجرد عاطفة خيالية فشكراً له لأنه مكننى من التصرف بما تمليه الحكمة ... ، لقد سويت خلافاتى مع أكتافيوس ، وعدت إلى

أخته التى كانت قبل كل شىء زوجتى الوفية ... ، وهكذا استطعت أن أحيا حياة محترمة مما أهلنى لعضوية هذه اللجنة ، وأنه لمن دواعى أسفى أن الواجب العام ، قد فرض علىَّ بأن أقضى على كليوباترا بالموت ، فبهذه الطريقة وحدها يغدو وفاق مع « أوكتافيا » وأخيها وفاقاً صلباً ... ، لقد كان هذا الواجب كريهاً بطبيعة الحال ... ، غير أنه لا ينبغى لأى مواطن راسخ العقيدة أن يتردد فى أداء مثل هذه الواجبات التى تمليها المصلحة العامة .

سأله عطيل : « ولكن هل كنت تحب أوكتافيا .

قال أنطونيو : حسناً ... ، إننى لا أعرف على وجه اليقين ما الذى يمكن أن نسميه حبًا ... ، إننى أحمل إزاءها تلك المشاعر التى ينبغى أن يحملها كل مواطن جاد وعاقل إزاء زوجته ، لقد وجدت فيها رفيقًا جديرًا بالثقة فى أداء مهامى العامة ، كما كانت نصائحها تمثل جانباً من العوامل التى مكنتنى من أن أرقى إلى مستوى مشاعر الدكتور بومبا ستيكوس ، أما بالنسبة لذلك الحب العاطفى الذى عرفته قبل أن أقابل ذلك الرجل النابغة ، فلقد ألقيت به جانباً وكسبت احترام المدافعين عن الأخلاق بدلا منه .

التمثال : من بين آلاف كثيرة من القبلات ... ، أضع فى النهاية هذه القبلة الشاحبة على شفتيك .

وعندما سمع أنطونيو هذه الكلمات أخذ يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وبدأت عيناه تغرورقان بالدموع ... ، لكنه استطاع بشيء من الجهد أن يتمالك نفسه ويقول : ... كلا ... ، لقد ضربت صفحاً من ذلك كله .

التمثال : غاب اليوم الساطع .. وعما قليل يحل الظلام .

قال أنطونيو : حقاً إن ذلك التمثال ... ، لا أخلاقى تماماً ، أو يحسب أن من اللائق أن يتحدث عن اليوم الساطع ، فى حين أنه يقصد التمرغ فى أحضان المومسات ... ، إننى لا أفهم لماذا يتسامح معه المسئولون عن الروتارى ... ، لكن ما الذى تقوله يا روميو فإنك أيضًا وإلى حدٍ ما قد أجبرت على إدمان عواطف الحب الملتهب على يدى هذا الفاجر العريق .

قال روميو : حسناً إننى أعتقد أنه قد اشتط شططاً كبيرًا فيما يتعلق بى إلى حد يتجاوز مبالغاته بالنسبة لكم ... ، إن لدى بعض الذكريات القاتمة عن تجربة مراهقة رومانسية مع فتاة لا أتذكر اسمها تماما أظن أنه كان شيئاً من قبيل « جمينا » ... ، أو « جوانا » ... ، آه كلا لقد تذكرت ... كان اسمها « جولييت » ...

قاطعه التمثال قائلا : «كانت تهفهف على خدود الليل .. كجوهرة متلألئة فى أذن حبشية» ...

واستطرد روميو : كنا نحن الاثنين صغيرين جداً وسخيفين جداً ، وقد ماتت هي فى ظروف يغلب عليها الطابع التراجيدى

« هنا قاطعه التمثال مرة أخرى » :

إن جمالها يجعل من هذا العقد موكباً من النور المكتمل .

واستطرد روميو قائلا :

كان الدكتور بومبا ستيكوس فى تلك الأيام يعمل صيدليًّا وقد عالجنى من ذلك الإحساس الأحمق بخيبة الأمل والذى وجدت نفسى مدفوعاً إلى الإحساس به لفترة قصيرة ، لقد أوضح لى أن دوافعى الحقيقية تتمثل فى التمرد على الأب . هذا التمرد هو الذى جعلنى أعتقد أن حب فتاة من آل كابولى ، هو أمر عظيم ، كما أوضح لى أن التمرد على الأب كان على مدى العصور مصدراً للسلوك المنحرف ، وذكرنى بأن سنة الطبيعة تقضى ، بأن المراهق الذى هو اليوم ابن ، سوف يصبح أباً فى الغد . وهكذا أبرأنى من تلك الكراهية اللا شعورية التى كنت أكنها لأبى ، وهيأنى بذلك لأن أكون السند الرصين الجدير بأن يحمل أمجاد آل مونتاجيو .

وحينما حان الوقت تزوجت إحدى بنات أخت الأمير ، واكتسبت احترام الجميع ولم أعد أتفوه بتلك العواطف المبالغ فيها التى لا تؤدى إلا إلى الدمار كما أوضح شكسبير .

التمثال : إن عقارك سريع المفعول ... ، وهكذا بقبلة أموت .

قال روميو : فى هذا ما يكفى بالنسبة لى ، والآن لنستمع إلى حكايتك يا هاملت .

بدأ هاملت حديثه فقال : لقد كنت نادر الحظ حقًّا بلقائى مع الدكتور بومبا ستيكوس ، ذلك أننى كنت حينذاك فى حالة بالغة السوء . كنت متعلقاً بأمى ، وأنا أتصور أنى متعلق بأبى ، وإنْ أوضح لى الدكتور بومبا ستيكوس فيما بعد ، إنى كنت فى حقيقة الأمر أبغضه بدافع الغيرة ، وعندما تزوجت أمى من عمى « برزت كراهيتى لأبى – والتى كانت لا شعورية – فى كراهية شعورية لعمى ، وأخذت هذه الكراهية تفعل فعلها فى نفسى حتى أصبت بالهلوسة ، وخيل إلىَّ أننى رأيت أبى ، وأنه من خلال تهيؤاتى أخبرنى بأنه قد لقى مقتله بيدى شقيقه ، وهكذا تصورت أن الواجب يقضى على بأن أقتل عمى ، وذات مرة توهمت أنه مختبئ خلف ستار من الستائر فوجهت طعنة نجلاء إلى ما تصورت أنه هو ، غير أن ما طعنته ، لم يكن إلا فأراً ، وإنْ كنت نتيجة لاختلال عقلى قد تصورت أنه رئيس الوزراء ... ، ولقد أثبت هذا للجميع ، أن اختلالى كان خطيراً ، وهكذا تم استدعاء الدكتور بومبا ستيكوس لكى يعالجنى .

ينبغى على أن أقول بأنه قد أدى مهمته خير أداء . فقد جعلنى أفطن

إلى مشاعر الاشتهاء التى أكنها لأمى ، وأن أفطن إلى مشاعر الكراهية التى أكنها لأبى وإلى تحول هذه المشاعر إلى عمى . كان لدى شعور لا معقول بأهمية الذات ، وأن موازين الأمور قد اختلت ، وأننى ما ولدت إلا لأعيد الأمور إلى نصابها ، ولقد أقنعنى الدكتور بومبا ستيكوس بأننى كنت صغيرًا جدًا ، وأننى كنت أفتقر إلى الدراية بشئون الحكم ، وهكذا تبين لى أنى كنت مخطئاً فى معارضتى للنظام السائد الذى ما كان أى مواطن راسخ العقيدة إلا يمنحه التأييد . اعتذرت لأبى عما عساه أن يكون قد بدر منى من وقاحات ، وأقمت علاقات طيبة مع عمى – وإن كان من الواجب على أن أعترف بأنى مازلت إلى الآن أعتقد أنه إنسان سمج إلى حدٍ ما – وتزوجت « أوفيليا » التى أصبحت زوجتى المطيعة . وحين حان الأوان ، توليت الملك ، وكان لى شرف الذود عن حمى الوطن فى المعارك الناجحة التى خضناها ، إبان الخلافات مع بولندة : ثم انتهت حياتى وأنا أحظى بالاحترام من الجميع ، بل إن عمى نفسه ، لم تكن ذكراه تثير فى وجدان الشعب ما تثيره ذكراى من الاحترام .

التمثال : لا شىء على الإطلاق حسن فى ذاته ، أو ردىء فى ذاته ، بل إن تفكيرنا هو الذى يجعله كذلك .

قال هاملت : أنصتوا إلى الولد العجوز ... ، إنه ما يزال يردد

نفس الهراء ... ، أليس من الواضح أن ما فعلته كان حسناً ، وأن ما زعم شكسبير أنى فعلته كان سيئاً .

تساءل ماكبث : ألم يكن لديك صديق فى مثل سنك ... ليشجعك قليلا على حماقاتك ؟

أجاب هاملت : بلى ... ، أنت تذكر هذا الآن ... لقد كان هناك فعلا شاب يافع ... ، لكن ماذا كان اسمه ؟ هل كان « نلسون » ؟ كلا لا أظن هذا صحيحاً ... ، آه لقد تذكرت لقد كان « هوراشيو » ، .. نعم لقد كان له تأثير سيئ علىّ .

التمثال : طابت ليلتك أيها الأمير الجميل .. فلتصدح أسراب الملائكة لك ... ، من أجل أن تهنأ نفسك .

قال هاملت : نعم .. هذا كله شيء رائع .. فما هو إلا من قبيل تلك الملاحظات السقيمة التى يولع بها شكسبير ، أما بالنسبة لى فمنذ أن عالجنى الدكتور بومبا ستيكوس أعرضت عن هوراشيو . وأقبلت على روزينكرانتز وجيلد نشترن إذ أنهما كانا فى غاية الاتزان كما قرر الدكتور بومبا ستيكوس .

غمغم التمثال قائلا : الذى سوف أثق فيه هو أنياب الأفعى .

وتساءل أنطونيو : لكن ما رأيك الآن فى الموضوع بأكمله بعد أن أصبحت فى عداد الموتى ؟

أجاب هاملت : حسناً ... ، لا أنكر أنى تنتابنى فى بعض الأحيان فترات أشعر فيها بنوع من الحسرة من أجل تلك الجذوة القديمة ... ، من أجل تلك الكلمات الذهبية التى كانت تنساب من فمى ، ومن أجل تلك البصيرة التى كانت عذابى ونعيمى فى آن واحد ... ، بل إننى مازلت أذكر إلى الآن مقطوعة أدبية بليغة من تأليفى مطلعها ، « ياله من تحفة بديعة ... ، ذلك الإنسان » . إننى لا أنكر أن عالم الجنون الخاص لا يخلو من ميزة ما ، لكننى اخترت أن أحيا فى عالم العقلاء ... ، عالم أولئك الأناس المخلصين الجادين الذين يؤدون واجبات محددة دون شك ، ودون تساؤل ، الذين لا ينظرون أبداً إلى ما وراء السطح الظاهر ، خوفاً مما عساهم يشاهدونه ، الذين يحترمون آباءهم وأمهاتهم ، الذين يؤازرون أوطانهم دون أن يتساءلوا إن كانت أوطانهم تستحق المؤازرة ، والذين هم فى منتهى الورع يعبدون إلهاً صنعوه من خيالهم ، والذين لا يشاركون فى أى أكاذيب ما لم يتبين أنها تخدم مصالح الأقوياء . إننى أنتمى إلى هذه العقيدة انطلاقاً من تعاليم الدكتور بومبا ستيكوس ... ، وعلى هذا المبدأ عشت وبه مت .

التمثال : ... ، ما الذى عسى أن نراه من الأحلام فى رقاد الموت ذاك ... ، حينما نضونا عنا هذه اللفافة الزائلة ... ؟ لابد لنا

من وقفة نعيد فيها النظر.

قال هاملت : يا للهراء ، أيها العجوز ، ليست لدى أحلام على الإطلاق .. إننى سعيد بالعالم كما هو ... ، إنه كل ما أستطيع أن أتمنى ... ، وهل ثمة شيء فى العالم يستعصى على أمثالى من الأفاقين تحقيقه ؟ .

التمثال : قد يبتسم المرء . ويبتسم ... لكنه يكون فى الحقيقة – وغداً .

قال هاملت : لأن أبتسم وأكون وغداً ... ، خير من أن أنتحب وأكون إنساناً طيباً .

التمثال : لقد آمنت بما آمنت بكل صلابة ورسوخ ، – لذا – فلا أظن أن من الوفاء أن يضرب به هكذا عرض الحائط .

قال هاملت : نعم ... ، فما الذى تعنيه العدالة بالنسبة لى إذا كنت أربح من الظلم ؟ .

التمثال : فمن ذا الذى سوف يتحمل سياط الأيام واحتقارها ... ؟

صاح هاملت : كفى لا تعذبنى .

التمثال : إنك تولى الأدبار ... ، قبل أن أضع على عينيك منظاراً ترى من خلاله أعمق أعماقك .

صرخ هاملت : يالى من مخادع ... ، ويالى من عبد بلا حرية ، فلتذهب إلى الجحيم أيها الدكتور بومبا ستيكوس ، إلى الجحيم أنت والتوازن النفسى ، إلى الجحيم بكل مالديك من فطنة ، ومع كل مايكيله لك الحمقى من المديح ... ، تفوه هاملت بهذه العبارات ثم سقط مغشياً عليه .

التمثال : ما تبقى هو الصمت .

وفى هذه اللحظة دوت صرخة حادة ، صرخة نابعة من الأعماق ... ، كانت تنبعث من أنبوبة لم يفطن أعضاء الروتارى إلى وجودها من قبل ... ، وتأوه صوت ملتاع وهو يقول : « أنا الدكتور بومبا ستيكوس ... ، إننى فى الجحيم ... ، إننى ألتمس التوبة ... ، فقد قتلت أرواحكم ... ، وأما هاملت فقد كان فى أعماقه جذوة باقية ، وهى التى أدانتنى . إننى كنت أسكن الجحيم ، ولم أكن قبل الآن أدرى ما الجريمة التى اقترفتها ... ، كنت أسكن الجحيم لأننى كنت أفضل الإذعان على المجد ، ولأننى كنت أحسب أن الخنوع خير من التفوق ... ، كنت ألتمس الانسياب والوداعة بدلا من التوهج الساطع ... ، كنت أخشى الرعود ، ولهذا آثرت الرذاذ الخفيف الذى لا ينقطع .

إن ندم هاملت هو الذى جعلنى أفطن إلى خطيئتى – إن الجحيم

الذى أعيش فيه حالياً مملوء بالعقد التى تحاصرنى ... ، وعبثاً فمها أحاول الابتهال إلى القديس فرويد ، فإنى أظل سجيناً فى دوامة لا نهائية ، وفى مكان عام يفتقر إلى العقل ... ، تشفعوا لى أنتم يا ضحاياى ... ، فسوف أبطل مفعول التعويذة الشريرة التى أصبتكم بها . غير أن الخمسة الباقين ، لم يستمعوا إليه واستداروا فى هياج شديد إلى التمثال الذى جلب اليأس إلى صديقهم هاملت ، ووجهوا إليه الضربات القاسية ... ، مما جعله يتهشم قطعاً قطعاً ، وعندما تم تهشيمه ، ولم يبق إلا رأسه غمغم قائلا :

يا إلهى ... ، أى نوع من الحمق هؤلاء (الفانون) .

ظل الخمسة فى نادى ليمبو ... ، غير أن الدكتور بومبا ستيكوس ظل فى الجحيم ، أما هاملت فقد اختطفته ملائكة الرحمة وحلقت به إلى عنان السماء* .

---

* تم إحلال أوفيليا محل هاملت فى اللجنة السداسية .

كابوس الفيلسوف الميتافيزيقى

يبدو لى أن صديقى التعس « أندريه بمبلوفسكى » (أستاذ الفلسفة السابق بجامعة وسط أوربا التى اندثرت حاليًّا) يعانى من نوع من الجنون عديم الضرر .

أنا شخصيًّا ، رجل يعيش على نوع من البداهة الفطرية ، إننى أومن بأنه لا ينبغى لنا أن نسمح للعقل المتفلسف بأن يقود خطوات حياتنا ، فما هو إلا وسيلة لخلق محاورات فكرية ممتعة ، أو هو مجرد وسائل لإزعاج أولئك الخصوم الذين يقلون عنا فطنة وذكاءً . غير أن بمبلوفسكى ، لم يكن من معتنقى هذا الرأى ، فقد سمح لعقله الفلسفى بأن يقوده إلى حيث شاء ومهما كانت النتائج غريبة . ونادرًا ما كان يفضى بالمرتكزات التى بنى عليها آراءه ، تلك التى ظلت غامضة بالنسبة لمعظم أصدقائه . كل ما هو معروف عنه أنه كان يتفادى دائمًا وبشكل مطرد استخدام لفظ « ليس » ومرادفاته جميعها ، فلم يكن مثلا ليقول : « هذه البيضة ليست طازجة » ولكنه كان يقول : « لقد حدثت بعض التغييرات الكيميائية فى هذه البيضة منذ أن

وضعت » ، ولم يكن ليقول : « إننى لست أستطيع العثور على ذلك الكتاب » ولكنه كان يقول : « إن الكتب التى عثرت عليها مختلفة عن ذلك الكتاب » ولم يكن ليقول : « إنك لن تُقتل » ولكنه كان يقول : « إنك سوف تتمسك بالحياة » .

كانت حياته غير عملية ، وإن كانت حياة بريئة ، وكنت أحس نحوه بقدر من التعاطف الملموس ، وكان هذا بغير شك هو ما حل عقدة شفتيه فى النهاية ، وما دفعه بأن يفضى إلىَّ بالخبرة التالية الملفتة للنظر حقًا ، والتى أقدمها بعباراته هو :

« أصابتنى يوماً حمى بالغة الخبث كادت تفضى بى إلى الهلاك . وكنت خلالها مستغرقاً فى هذيان طويل ومتناسق . حلمت بأننى كنت فى الجحيم ، وكان ذلك الجحيم مكاناً مملوءاً بكل تلك الأحداث غير المتوقعة ، وإن كانت غير مستحيلة ، وقد ترتب على هذا آثار غريبة حقًّا .

كان بعض المقضى عليهم بجهنم ، يتصورون أنهم يستطيعون أن يقطعوا هذا الملل الأزلى فى لعب الكوتشينة ، غير أنهم تبينوا أن هذا أمر مستحيل ، إذ كلما عمدوا إلى تفنيط أوراقها عادت من تلقاء نفسها إلى ترتيب محدد يبدأ من الآس البستونى ، وينتهى إلى الولد ذى القلوب .

وكان هناك قسم خاص فى الجحيم ، من أجل المتخصصين فى دراسة نظرية الاحتمالات ، وفى هذا القسم كان هناك عدد كبير من الآلات الكاتبة ، وعدد كبير من القردة ، وفى كل مرة يحدث فيها أن يجلس أحد القردة إلى إحدى الآلات ، ويدق أزرارها كانت تكتب بمحض الصدفة إحدى مقطوعات شكسبير الشعرية ، وكان هناك ثمة مكان آخر لتعذيب المشتغلين بالفيزياء ، به مجموعة من الغلايات ، ومصادر اللهب ، وعندما كانت الغلايات توضع فوق النيران ، كان الماء الذى بها يتجمد ! .كانت هناك أيضًا غرف فاسدة الهواء ، غير أن التجربة علمت المشتغلين بالفيزياء ألا يحاولوا فتح النافذة لأنهم إن فعلوا هذا فإن الهواء بأسره يندفع إلى الخارج ويترك الحجرة فراغاً تاماً . وكان يوضع تحت تصرفهم أفخر المواد الخام وأمهر الطهاة ، وعندما تقدم لهم فطائر اللحوم ويقضمون منها قضمة كافية ، كان مذاقها يبدو كمذاق البيض الفاسد ، وحينما يحاولون تناول بيضة ، كان مذاقها يبدو كمذاق البطاطس الرديئة .

كانت هناك غرفة إيلام خاصة ، يشغلها فقط أولئك الفلاسفة الذين رفضوا آراء هيوم[١] ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الفلاسفة

---

(١) « دافيد هيوم » : فيلسوف إنجليزى من فلاسفة القرن الثامن عشر ، رفض الآراء المثالية فى المعرفة التى تذهب إلى وجود مبادئ فطرية فى العقل ، لا تستمد من التجربة =

كانوا فى الجحيم ، فإنهم لم يتعلموا الحكمة ، وظلوا مدفوعين إلى الاستقراء[1] بحكم ميولهم الحيوانية ، لكنهم فى كل مرة يتوصلون فيها إلى استقراء ما كانت تكذبه الشواهد التالية ، لكن هذا الأمر قد اقتصر على الألف عام الأولى من عقوبتهم ، ثم تعلموا بعد ذلك أن أى استقراء يتوصلون إليه ، سوف يتحقق بطلانه ، وأنه ولهذا السبب لن يتحقق بطلانه قبل أن يحل قرن آخر من التعذيب المنطقى ، يؤدى إلى تغيير مجرى توقعاتهم ، وعلى مدى الأبدية ظلت الدهشة متصلة ، وإنْ انتقلت فى كل مرة إلى مستوى أعمق . ثم يأتى بعد ذلك جحيم الخطباء الذين تعودوا فى حياتهم على أن يهزوا الجماهير ببلاغتهم . كانت بلاغتهم ماتزال ناصعة لم تحجب ، وكانت الجماهير أمامهم محتشدة ، غير أن رياحًا غريبة كانت تصدر أصواتاً تتداخل فى

= الحسية ، ومن أمثلتها ، مبدأ السببية ، الذى يقول : إن كل مسبب سببا ، وأن وجود السبب يستتبع وجود المسبب ، وقد أنكر هيوم فكرة ، السبب والمسبب ، إذ لا توجد فى رأيه أسباب أو مسببات ، بل يوجد اقتران زمنى بين الأحداث فحسب ، وهو رأى قريب جدًا إلى ما ذهب إليه حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى ، برغم اختلاف المذهبين . (المترجم) .

(١) الاستقراء : هو ملاحظة مجموعة من الوقائع أو الأحداث ، للتوصل إلى الروابط القائمة بينها ، والكشف عن النظام ، أو القانون الذى يتحكم فى طريقة وقوعها . (المترجم)

أصواتهم ، بحيث لا يسمع الجماهير ما يتفوه به أولئك الخطباء بل يسمعون بدلا منها أصواتاً غثة مبهمة ومبتذلة .

وأما فى بؤرة مملكة الجحيم ، فقد كان الشيطان الذى لم يكن ليسمح بالمثول فى حضرته إلا لخاصة الخاصة من بين المقضى عليهم . وأن درجة الغرابة واللا توقع لتتعاظم شيئاً فشيئاً ، كلما أصبح المرء أقرب إلى حضرة الشيطان ... ، بل إنه هو نفسه إنما يمثل أقصى ما يمكن تصوّره من اللا توقع فى أكمل معانيه .. وأنه محض لا شيء ... ، وأنه لا وجود لكيان ... ، ومع هذا ، فهو دائم التغير والصيرورة ، ونظرًا لما أتمتع به من بروز فلسفى فإنه سرعان ما سمح لى بالمثول أمام أمير الظلام .

كنت قد قرأت عن الشيطان باعتباره روحاً سالبة ... ، غير أننى صدمت حين ولجت إلى حضرته ، إذ تبين لى أنه ذو جسد سلبى ، فى نفس الوقت الذى هو فيه ذو عقل سلبى ، فما كان جسد الشيطان إلا فراغاً تاماً ومطلقاً ، لم يكن فراغاً من ذرات المادة فحسب ، بل كان كذلك فراغًا من ذرات الضوء وأن قمة اللا توقعات لتتضافر حتى تؤمن له فراغه ، فعندما تقترب ذرّة ما من سطحه الخارجى ، يحدث بمحض الصدفة أن تصطدم بذرة أخرى تمنعها من الولوج إلى المنطقة الخلاء . ولما كان الضوء ، لا ينفذ إطلاقاً إلى هذه المنطقة الخلاء ،

فقد كانت سوداء سواداً مطلقاً ، سواداً لا يدانيه فى قليل أو كثير ، لون تلك الأشياء التى اعتدنا أن ننسب إليها هذه الصفة ، بشيء كبير من التساهل والتجاوز ... ، إذ كان سواداً حقيقياً تاماً ولا محدوداً ، كان ذا شكل معين هو ذلك الشكل الذى تعودنا أن ننسبه إلى الشيطان . قرون وحوافز وذيل وما إلى ذلك ، كانت بقية الجحيم مملوءة بغيوم من اللهب وفى مقابل هذه الخلفية ، كان الشيطان يمثل فى جلالته المرعبة ... ، لم يكن ساكناً ، بل العكس ، كان الفراغ الذى يتكون منه دائم الحركة ، وعندما كان يزعجه شيء ما ، كان يهز طيات ذيله المرعبة كأنه قطة غاضبة ... ، وكان يمضى فى بعض الأحيان ليفتتح ممالك جديدة ... ، وقبل أن يمضى كان يلف نفسه داخل درع أبيض ساطع ، بحيث يخص تماماً ذلك اللا وجود القابع داخله ... ، كانت عيناه فقط هما اللتان تظلان بغير غطاء ، ومن عينيه كانت أشعة العدم تنبعث باحثة عما عساها تقهر ، وحينما تجد النفى ... ، حينما تجد النهى ، حينما تجد عقيدة اللا فعل ، فإنها تنفذ إلى أعمق مكونات أولئك الذين هم مهيئون لاستقبالها ، إن كل نفى ينبعث منه ليعود بحصاد من الإحباطات المغتنمة ، حيث تصبح الإحباطات المغتنمة جزءاً منه ، فينتفخ بذلك حجمه حتى أنه لينذر بأن يملأ سائر الفراغ .

إن كل مفكر أخلاقى يقوم مذهبه على مبدأ « لا تفعل » ، وإن كل رعديد لا يقوى على انتظار ما سوف يلقى ، وإن كل طاغية يرغم الخاضعين لـه على العيش فى خوف ، إن أياًّ من هؤلاء ، سوف يصبح يوماً ما جزءًا من الشيطان . كان الشيطان محاطاً ببطانة من الفلاسفة المتملقين الذين استبدلوا بمذهب وحدة الوجود ، مذهب وحدة الشيطان ، إن هؤلاء يقولون بأن الوجود ظاهرى فحسب وأن اللا وجود وحده هو الواقع الحق ، وأنهم يأملون فى أن يتمكنوا يوماً من جعل لا وجود الظاهر ، أمراً ظاهراً إذ سيتبيّن لنا حينئذ أن ما نعده وجوداً ليس فى حقيقته إلا جزءًا من الماهية الشيطانية .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الميتافيزيقيين كانوا على قدر كبير من الحذق ، فإننى لم أستطع أن أتفق معهم . لقد تعودت حينما كنت على الأرض أن أعارض السلطة الطاغية وقد ظلت هذه العادة تلازمنى وأنا فى الجحيم ، وهكذا بدأت الحوار مع الميتافيزيقيين المنافقين ، واجهتهم باعتراضى على ما يقولونه من هراء ... ، قلت لهم إنكم تدّعون بأن اللا وجود وحده هو الواقع الحق ... ، وأنتم تزعمون بوجود هذه الهوة السوداء التى تعبدونها ... ، إنكم تحاولون إقناعى بوجود اللا وجود ، غير أن هذا ، ما هو إلا تناقض وأننى لن أنحدر بمستوى تكوينى المنطقى ، إلى حد قبول التناقض بالغة ما بلغت ألسنة

الجحيم من اللظى .

وعند هذه النقطة أمسك رئيس البطانة المتملقة بزمام المحاورة قائلا لى : لقد تسرعت كثيرًا يا صديقى .. إنك تنكر أن اللا وجود موجود ... ، لكن ما هذا الذى تنفى عنه صفة الوجود ؟ إذا كان اللا وجود مجرد لا شىء ، فإن أى عبارة تدور حوله سوف تكون عبارة فارغة المعنى ... ، ومن قبيل هذا عبارتك التى تقول فيها عنه ، إنه غير موجود . إننى أخشى أن تكون قد وجهت اهتماماً ضئيلا إلى التحليل المنطقى للعبارات ، وهو ما ينبغى أن تكون قد تعلمته وأنت بعد صبى ... ، ألا تدرى أن لكل جملة موضوعاً وأنه إذا كان الموضوع مجرد لا شىء ، فإن الجملة تصبح فارغة من المعنى ، وهكذا فإنك حينما تزعم بما أوتيت من الكراهية الفاضلة أن الشيطان الذى هو اللا وجود غير موجود ، فإنك تناقض نفسك بوضوح بالغ .

أجبت قائلا : لاشك أنك موجود هنا منذ زمن ما ، لأنك مازلت تعتنق بعض النظريات التى بليت إلى حدٍ ما ، إنك تهدف بأن لكل جملة موضوعًا ، غير أن هذا النوع من الكلام قد عفا عليه الزمن فعندما أقول بأن الشيطان – الذى هو ليس موجودًا – لا يوجد فإننى لا أشــير إلى « الشيطان » ولا إلى « اللا موجود » ولكننى أشير

فقط إلى كلمتى «شيطان» و«لا موجود» ، غير أن أغاليطك قد كشفت لى عن حقيقة عظمى ... ، تلك الحقيقة العظمى هى أن كلمة «ليس» زائدة على الحاجة ، وسوف لا أستخدم كلمة «ليس» من الآن فصاعداً .

عندئذ انفجرت بطانة الميتافيزيقيين فى قهقهة مدوية ، وعندما زايلتهم نشوة القهقهة ، هتفوا : انتبهوا .. ، لكم يناقض هذا الفتى نفسه ... ، انتبهوا إلى وصيته العظمى التى تقضى بعدم استخدام أدوات النفى ... ، إنه حقاً لن يستخدم «لن» أو «ليس» .

وبرغم استفزازى فقد احتفظت برباطة جأشى وأخرجت قاموساً كنت أحتفظ به فى جيبى ، ثم حذفت منه سائر الألفاظ التى تعبر عن صيغة النفى ، ثم قلت : إن حديثى سوف يكون بأسره مكوناً من الألفاظ الباقية فى هذا القاموس ، وبمعونة هذه الألفاظ سوف أكون قادراً على وصف أى شىء فى الكون ، سوف تتعدد أوصافى ، لكنها سوف تدور حول كل شىء عدا الشيطان . لقد حكم الشيطان مملكة الجحيم طويلا ... ، كان درعه الساطع حقيقياً وباعثاً على الرعب غير أن ما تحت الدرع كان مجرد عادة لغوية رديئة ، ما علينا إلا أن نتحاشى كلمة «ليس» فتدول دولته .

كان الشيطان مع استمرار المناقشة يهز ذيله فى غضب دائم

التزايد ، وكانت أشعة الظلام القاسية تنبثق من عينيه الغائرتين لكن فى النهاية ، وعندما شجبته باعتباره عادة لغوية رديئة ، سرعان ما دوى انفجار رهيب ، واندفع الهواء من كل الاتجاهات وتلاشت هذه الهيئة المرعبة . أما جو الجحيم الضبابى الذى كثفته أشعة العدم فقد انقشع كما لو كان سحر ساحر . وأما ما كان يبدو قردة على الآلات الكاتبة فقد لاح فجأة أنهم نقاد أدبيون ... ، غلى الماء فى الغلايات وتفنطت أوراق الكوتشينة ، وهب الهواء المنعش النقى عبر النوافذ إلى الداخل وأصبح مذاق فطائر اللحوم كمذاق فطائر اللحوم ... ، وبإحساس من التحرر الرائع استيقظت لأجد أن حلمى كان منطوياً على الحكمة وإن ارتدى قناع الهذيان ومنذ تلك اللحظة زايلتنى الحمى ، أما الهذيان - إذا شئت أن تسميه كذلك - فقد ظل ملازماً إياى .

كابوس الفيلسوف الوجودى

نال الفيلسوف والشاعر العظيم « بورفير ايجلانتين » قدراً كبيراً من ذيوع الصيت نظراً لكتاباته العديدة التى تتسم بالتعمق ونفاذ النظر ، غير أن أهم ما جلب له الشهرة هو قصيدته الخالدة « أغنية العدم »[1] التى يقول فيها :

« خلال صحراء شاسعة » ،
خلال امتداد لا نهائى من الرمال
أبحث
أبحث عن الطريق الضائع
روحى تهيم هنا .. وهناك
فى كل الاتجاهات
وهى تنقب ولا تلقى شيئاً ... ،

---

(١) على الرغم من أن القصيدة فى لغتها الأصلية قد كتبت باللغة الإنجليزية الا أن راسل قد أورد هذه القصيدة ، باللغة الفرنسية ، ولعله يقصد من ذلك أن يسخر من ممثلى الفلسفة الوجودية فى فرنسا وأن يثبت لهم أنه من السهولة بمكان أن يكتب المرء روائع كروائعهم وباللغة التى يكتبون بها أيضا . « المترجم » .

وسط هذا الخلاء الفسيح ..
هذا الخلاء الذى بلا نهاية
هذه الرمال
هذه الرمال المتلألئة والخانقة
هذه الرمال المملة الكئيبة
الممتدة بلا نهاية إلى حدود الأفق
إننى أسمع فى نهاية الأمر
صوتاً
صوتاً هادراً ورقيقاً فى نفس الآن
يقول هذا الصوت لى
لعلك تظن أنك روح ضائعة
لعلك تظن أنك روح
إنك على ضلال .. فأنت لست روحاً
وأنت لست ضائعاً
وأنت لست شيئاً
وأنت لا توجد

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة شديدة الذيوع ، فإن عدداً قليلا من الناس هم الذين يعرفون الملابسات التى أفضت إليها

وما أسفرت هى عنه من أحداث ..

وهأنذا أرى أن من واجبى أن أحكى هذه الملابسات والأحداث على ما بها من ألم .

كان بورفير منذ صباه الباكر يتسم بالحساسية والمعاناة ، فلقد تسلط عليه الخوف من احتمال أنه ربما لا يكون موجوداً ، وكلما كان ينظر إلى المرآة . كان ينتابه التوجس من احتمال عدم ظهور صورته ومن ثم فقد قام باختراع فلسفة معينة على أمل أن يتمكن بها من تبديد هذا الرعب ، لكن هذه الفلسفة كانت تعجز بين الحين والحين عن تحقيق الراحة له .

لقد كان قادراً على دفن شكوكه بوجه عام بيد أن أغنية الميلاد التى تعبر عن رؤيا مفاجئة ومدمرة قد أظهرت أنه يفتقر إلى النجاح ، وهكذا قرر أن يكون موجوداً بشكل لا يحتمل أى شك ومهما كان الثمن فى سبيل أن يخرس هذا الصوت الطيفى .

ومن خلال الملاحظة والتقصى اقتنع بأنه ما من شىء حقيقى كالألم ، وأنه لا يستطيع تحقيق وجوده إلا بالمعاناة ، وهكذا راح يتلمس مواطن المعاناة فى العالم عبر رحلة من الأسى .

قضى شتاءً متفرداً فى القطب الجنوبى ، حيث كان الليل الذى لا نهاية له يوحى برؤى كئيبة وقاتمة عن المستقبل ، ثم عرض نفسه

لألوان شتى من التعذيب فى ألمانيا النازية من خلال ادعائه بأنه يهودى ، غير أنه فى اللحظة التى أضحت فيها ضروب التعذيب غير محتملة جاء غراب بو[1] ناعقاً داخل معسكر التعذيب ... هوب .. هوب ... ، جاء ليردد على لسان ما لا رميه مقاطعه المرعبة « أنت لا تعانى ... أنت لست شيئاً ... أنت غير موجود » ، فما كان منه إلا أن يولى وجهه بعد ذلك إلى روسيا حيث تظاهر بأنه جاسوس يعمل لحساب بورصة نيويورك ، وهكذا قضى شتاءً طويلا فى إسقاط الأشجار الضخمة بمحاذاة ساحل البحر المتجمد ، كان الجوع والإرهاق والصقيع ينفذ إلى أعمق أعماق وجوده ، فكان يقول لنفسه : إذا ما استمر الحال على هذا المنوال ، لمن المؤكد أننى سوف أوجد ، غير أن هذا لم يحدث ، ففى آخر يوم من أيام الشتاء وما إن بدأ الجليد فى الذوبان ، عاد الطائر المرعب إلى الظهور مرة أخرى ، عاد ليكرر ثانية تلك الكلمات الرهيبة ...

قال لنفسه : ربما كان شيئاً يسيرًا وهيّناً ما التمسته لنفسى من ضروب المعاناة ، وإذا كان لى أن أغدو بائساً حقًّا فإن علىّ أن أمزج الأحزان بعنصر من العار وفى سبيل تنفيذ هذا البرنامج ذهب إلى

(١) غراب بو هو الغراب الذى تدور حوله قصيدة الشاعر إدجار آلان بو الشهيرة ، والتى تعد نموذجًا واضحاً للشعر المشحون بالرعب والكآبة .. (المترجم) .

الصين ، حيث أنشأ علاقة غرامية ملتهبة بفتاة صينية ممتازة تشغل مكانة رفيعة فى مجلس المستشارين التابع للحزب الشيوعى ، ثم لجأ إلى اصطناع بعض المستندات المزوّرة مما ترتب عليه إدانتها بالعمالة للحكومة البريطانية ، ومن ثم فقد تعرضت لألوان مخيفة من التعذيب على مرأى ومسمع منه ، وعندما واتتها فى النهاية حشرجة الموت قال لنفسه « الآن عانيت حقًّا ، فلقد أحببتها حباً ملتهباً منذ البداية ، إلى أن أنزلت بها الدمار بخيانتى الوضيعة ... ، ومن المؤكد أن هذا سيجعلنى أعانى إلى أقصى ما تطيقه إمكانية البشر » .

لكن هذا لم يحدث ... ، فلقد تسرب إليه رعب مميت جعله عاجزًا عن الإتيان بأدنى حركة وهو يراقب طائر القدر الذى ظهر من جديد ، وأخذ يتكلم مرة أخرى على لسان ذلك الشاعر الخالد الذى قام بتقديم الطائر إلى جمهور الأدب الباريسى ...

وبمجهود بالغ استطاع أن يفصح عن يأسه ، فى حين كان الطائر مايزال ماثلا فقال : « أيها الغراب هل هناك من شىء ... ، أى شىء فى كل أرجاء هذا العالم الفسيح يمكن أن يفضى بك إلى الاعتراف بأنى موجود ؟

أجاب الغراب : « ابحث » ثم اختفى .

لا ينبغى لنا أن نفترض أن بورفير قد سمح لسعيه نحو المعرفة بأن

يمتص كل طاقاته ، فلقد ظل كما كان فيلسوفاً وشاعراً يحظى بالإعجاب فى كل مكان ، وعلى وجه الخصوص بين أوساط الصفوة المختارة ، وبمجرد عودته من الصين ، دعى إلى مؤتمر للفلسفة فى باريس كان الهدف الرئيسى من انعقاده هو تكريمه ... ، وقد حضره جميع الضيوف ما عدا الرئيس .

وبينما كان بورفير يترقب متحيراً لحظة وصول الرئيس ، جاء الطائر وشغل مقعد الشرف ، ثم اتجه إلى بورفير وقال بعبارات رنانة سمعها المؤتمر بأسره : « إن فلسفتك لا توجد إنها ليست شيئاً .

وقد جعلته هذه العبارات يشعر بوخزة من الألم المبرح لا تعادلها أو تدنو منها أى خبرة سابقة ، وقد نفذت إلى أعماق كيانه إلى حد أن سقط مغشياً عليه وعندما ثاب إلى رشده سمع الطائر يردد تلك الكلمات التى طالما اشتاق إليها أخيراً ، هأنتذا تعانى ... ، أخيراً أنت موجود ، واستيقظ ليكتشف أن هذا كان حلماً غير أنه لم يعد مرة أخرى إلى الكتابة فى الفلسفة أو الحديث عنها .

كابوس المشتغل بالرياضيات

صديقى المأسوف عليه البروفيسور « سكويربنت » الرياضى الذائع الصيت ، كان فى حياته ، أحد المعجبين بالسير « آرثر أدنجتون » وواحدًا من أصدقائه ، لكن نقطة معينة فى نظريات السير آرثر كانت دائماً تحير البروفيسور سكويربنت ، تلك هى ما كان ينسبه السير آرثر من القوى الصوفية والكونية إلى العدد ١٣٧ ولو أن هذه الخصائص المفترض وجودها فى هذا العدد كانت مجرد خصائص حسابية لما كان فى الأمر صعوبة ما ، غير أن العدد ١٣٧ كان ينتج آثارًا فى مجال الفيزياء تختلف عن تلك التى ينتجها العدد ٦٦٦ .

وهكذا فإن من الواضح أن محاورات البروفيسور سكويربنت مع السير آرثر ، هى التى جلبت إليه الكابوس التالى :

بعد أن قضى الرياضى يوماً طويلا مجهدًا فى دراسة نظريات فيثاغورس ، غلب عليه النعاس فى آخر الأمر وهو فى مقعده حيث طافت بأفكار نومه دراما مسرحية غريبة . لم تكن الأعداد فى هذه الدراما مجرد مقولات خالية من الحياة كما كان يتصورها من قبل ، بل

كانت كائنات حية تتنفس وتتمتع بسائر المشاعر التى كان يلمسها لدى رفاقه المشتغلين بالرياضيات . كان فى حلمه يقف فى مركز عدد لا نهائى من الدوائر المتحدة المركز ، وكانت الدائرة الأولى تشتمل على الأعداد من ١ إلى ١٠ ، والثانية من ١١ إلى ١٠٠ ، والثالثة من ١٠١ إلى ١٠٠٠ ، وهلم جرا إلى غير ما حد على السطح اللانهائى لمستوى بلا حدود .

كانت الأعداد الفردية إناثاً ، أما الزوجية فقد كانت ذكوراً ، وإلى جواره فى البؤرة كان يقف باى[1] سيد الطقوس ... ، كان وجه باى ملثماً ، وكان مفهوماً أن أحداً لن يستطيع أن يميط اللثام ، ثم يبقى بعد ذلك على قيد الحياة ، ومع هذا فقد كانت نظراته الثاقبة ، تلوح من خلال القناع جامدة وقاسية وغامضة ... ، كان كل عدد يحمل اسمه وقد نقش بوضوح على الزى المميز الذى يرتديه ... ، كانت الأعداد المختلفة ترتدى أزياء مختلفة وكان لها أشكال مختلفة . كانت الأعداد المربعة على هيئة بلاط المنازل ، وكانت الأعداد المكعبة تتخذ شكل زهر الطاولة والأعداد الدائرية

---

(١) باى Pi هو الحرف السادس عشر من الأبجدية اليونانية ويتخذ عادة رمزًا للنسبة التقريبية (ط) بين محيط الدائرة وقطرها وهو مقدار ذو طبيعة ملغزة ويساوى ٣,١٤ تقريباً (المترجم) .

على هيئة الكرات ، والأعداد الأولية على هيئة سبائك لا تقبل الانقسام . وكانت الأعداد التامة تحمل تيجاناً .

وبالإضافة إلى اختلاف الشكل ، فقد كانت الأعداد تختلف فى ألوانها . فقد كانت الحلقات السبع الأولى المتحدة المركز تتخذ ألوان الطيف السبع باستثناء الأعداد ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، وهلم جرا ، فقد كانت ذات لون أبيض فى حين كان العددان ١٣ ، ٦٦٦ ، مصطبغين باللون الأسود ، وعندما يحدث أن ينتمى عدد معين إلى فئتين فى نفس الوقت – وعلى سبيل المثال العدد ١٠٠٠ الذى هو عدد دائرى ومكعب فى الوقت ذاته فإن هذا العدد كان يرتدى زياً أكثر احتراماً وأبهة وكان الزى الأكثر احتراماً ، هو ذلك الذى لاتوجد منه سوى كميات قليلة بين المليون الأول من الأعداد .

أخذت الأعداد ترقص حول البروفيسور سكوبرينت وباى ، رقصة باليه معقدة وهائلة ، كانت الأعداد المربعة والمكعبة والأولية والهرمية والتامة والدائرية تمايل ، عبر سلاسل متداخلة خلال رقصة لا نهائية ساحرة ... ، وكانت وهى ترقص تنشد نشيداً تشيد فيه بعظمتها :

نحن الأعداد المتناهية
نحن مادة هذا العالم

ومهما تحدث من فوضى ومعوقات
فالأرض مبسوطة أمامنا
نحن نقدس سيدنا فيثاغورس
ونحتقر بكل عمق سائر الأغبياء والجهلاء
فلا ساحرة أندور ولا جبل بالام
نعدهما من ينابيع الحكمة
ولكننا ندور وندور خلال باليه لا نهائى
ندور وكأننا المذنبات التى رصدها هالى
وقد حظينا بتبجيل العظيم الخالد أفلاطون
إننا لا نظن أن أحداً من الفانين فى عظمته
إننا نتبع القوانين أبداً
وبلا انقطاع
لاننا نحن الأعداد المتناهية

ثم توقف الباليه بإشارة من باى ، وبدأ تقديم الأعداد واحداً بعد الآخر إلى البروفيسور سكويربنت ، حيث كان كل عدد يدلى بحديث قصير يشرح فيه فضائله الخاصة به .

العدد ١ :إننى االأب والأم بالنسبة للجميع ... ، إننى والد هذه السلالة اللانهائيــة ولولاى لما وجد أحد .

العدد ٢ :لا تكن مزهوًّا بنفسك إلى هذا الحد ، أنت تعلم أنه لابد أن يكون اثنان لكى يكون ثمة « أكثر من » .

العدد ٣ :أنا عدد أفراد الحكومة الثلاثية[١] ، وأنا كذلك عدد أعظم حكماء الشرق[٢] ، وعدد النجوم فى سديم الجبار ، وعدد الأقدار ، وعدد الإلهات الثلاث الشقيقات[٣] .

العدد ٤ :أما بالنسبة لى ، فما كان ليوجد شخص أمين[٤] ، وما كانت الأمانة لتوجد فى هذا العالم . لأننى أنا الذى يذود عن حمى القانون الأخلاقى .

العدد ٥ :أنا عدد أصابع اليد ، أنا الذى أكون الشكل المخمس والنجمة الخماسية ، ولولاى لما وجدت الدوديكا هديرا ، وكلنا نعلم أن العالم ما هو إلا دود يكاهديرون ، نعم لولاى ما كان العالم .

العدد ٦ :أنا العدد التام ... ، إننى أعلم أن لى بعض الغرماء من محدثى النعمة ، كالعدد ٢٨ ، والعدد ٤٩٦ والذين

---

(١) نظام للحكم عرفه الرومان (المترجم) .

(٢) أعظم حكماء الشرق بوذ أوكونفوشيسوس وزرادشت (المترجم) .

(٣) الشقيقات الثلاث : ثلاث إلهات يونانيات يختصصن بإسباغ الجمال على النساء . (المترجم) .

(٤) يطلق على الشخص الأمين فى اللغة الإنجليزية . Four Square

يتظاهرون أحياناً بأنهم على قدم المساواة معى لكن هيهات
فدونى ودونهم بون شاسع .

العدد ٧ :أنا العدد المقدس ... ، عدد أيام الأسبوع ... ، وعدد نجوم الثريا(١) ، وعدد الشمعدانات ذات الفروع السبعة ، وعدد كنائس آسيا . بل وعدد الكواكب السيارة لأننى لا أعترف بما يقوله ذلك الرجل المخرف جاليليو .

العدد ٨ :أنا أول الأعداد المكعبة باستثناء ذلك البائس العجوز العدد (١) والذى أعتقد أنه حالياً قد تقاعد عن عمله .

العدد ٩ :إننى عدد إلهات الفن ... ، فكل مفاتن الدنيا وبدائعها تعتمد على وجودى .

العدد ١٠ يحق لكم أيتها الوحدات الضئيلة التعسة أن تتفاخروا بهذه الأشياء التى تناسبكم ، أما أنا فإننى الأب الروحى لهذه الحشود اللانهائية التى تقبع خلفى – إن كل واحد مفرد يدين باسمه لى ، ولولاى وحدى لما كان سوى الغوغاء ، ولما كان هذا النظام المتسلسل المنضبط عند هذه النقطة أصاب الرياضى شىء من الضجر ، واتجه إلى باى قائلا

---

(١) الثريا سبعة نجوم فى برج الثور (المترجم) .

ألا تظن أن بقية التقديمات يمكن أن نخلص إليها ، حينئذ سمعت زمجرة عامة وصرخ الرقم ١١ : ولكننى كنت عدد الحواريين بعد خيانة يهوذا ، وقال العدد ١٢ وأنا كنت الأب الروحى لعدد الأيام عند البابليين وكنت أبا روحياً أفضل بكثير من ذلك الوضيع (١٠) والذى استمد مكانته من مجرد واقعة بيولوجية عارضة ، لا من خلال التفوق الحسابى ، ثم زمجر العدد ١٣ قائلا أنا سيد الحظ السيئ ... ، فإذا أسأتم الأدب فسوف تعانون كثيراً ، هنا حدثت ضوضاء صاخبة جعلت الرياضى يسد أذنيه بيديه وهو ينظر نظرات متوسلة إلى باى .

حينئذ لوح باى بعصا المايسترو وهتف فى صوت كالرعد — اصمتوا وإلا فسوف تصبحون جميعاً غير قابلين للقياس ... . فارتجفوا وشحب لونهم ولجئوا إلى الإذعان . وخلال الباليه كان البروفيسور يراقب أحد الأعداد الأولية وهو العدد ١٣٧ والذى كان يبدو عليه التمرد وعدم الرغبة فى تقبل مكانه داخل السلسلة والذى حاول مرارا أن يتقدم على العدد ١ ، ٢ ، ٣ ، مبدياً نزعة تخريبية كانت تنذر بتدمير نظام الباليه ، غير أن الذى أدهش البروفيسور سكويربنت أكثر من أى شىء آخر ، بل وأكثر من دهشته من هذا

السلوك غير المنضبط ، كان طيف شبح يبدو على طراز فارس من فرسان الملك آرثر ، وقد أخذ يهمس فى أذن العدد ١٣٧ بشكل مستمر ... ، امض قدماً إلى الأمام ... ، إلى الأمام ، إلى القمة ، وعلى الرغم من الطبيعة الطيفية لهذا الشبح والتى جعلت التعرف عليه أمرًا صعباً إلا أن البروفيسور تمكن فى النهاية من التعرف على الشكل الغائم لصديقه السير آرثر وهو ما دفعه إلى التعاطف مع العدد ١٣٧ ، على الرغم من الروح العدائية التى كان باى يعمل من خلالها على قمع هذا العدد الفردى المتمرد .

أخيراً تكلم ١٣٧ قائلا ... : إن هناك قرائن لعينة على وجود قدر كبير من البيروقراطية هنا ، وما أريده هو الحرية الفردية ... ، تجهم قناع باى ، ولكن البروفيسور تدخل قائلا لا تكن قاسياً معه إلى هذا الحد ... ، ألم تلاحظ أن الذى يوجهه شخص على دراية عميقة بالأمر ! لقد عرفت هذا الرجل العلامة فى حياته وإننى من موقع معرفتى به أستطيع أن أقرر أنه هو الذى يلهم العدد ١٣٧ مشاعره المعادية للحكومة ، ومن جانبى فإننى أود أن أستمع إلى ما يريد ١٣٧ أن يقول .

وافق باى بعد شىء من التردد وقال البروفيسور سكويرينت – أخبرنى يا ١٣٧ ما هى أسباب ثورتك ... ؟ هل الاحتجاج ضد عدم

المساواة هو الذى دفعك إليها ؟ أم أن ذاتك قد التهبت من خلال الإطراء الذى يوجهه إليه السير آرثر ولا شيء غير ذلك ، أم أن الأمر - وهو ما أعتقد أنه كذلك - نابع من الرفض الأيديولوجى القاطع للميتافيزيقا التى استمدها رفاقك من أفلاطون . ؟ ، آمل ألا تخشى شيئاً من مواجهتى بالحقيقة ... ، فسوف أقيم السلام ما بينك وما بين باى ، والذى أعرف عنه قدر ما يعرف عن نفسه على أضعف الإيمان ...

عندئذ انفجر ١٣٧ بحديث ملتهب : إنك على حق ... ، فإنها ميتافيزيقاهم تلك التى لاأطيقها ... ، إنهم مازالوا يتوهمون أنهم أزليون ، مع أن سلوكهم فى الماضى البعيد لم يكن ينبئ عن شيء من ذلك ... ، إننا جميعًا قد ألفينا سماء أفلاطون شيئًا كئيباً وقررنا أن الهبوط إلى العالم المحسوس هو أمر أقرب إلى الترويح عن النفس ، ومنذ أن هبطنا من هذه السماوات ونحن نحس بمشاعر مختلفة ، ذلك أن كل عدد فردى قد أصبح يشعر بالعشق نحو مرافقه الزوجى ، كما أن الأعداد الزوجية أصبحت تشعر بمشاعر ودية نحو الأعداد الفردية[1] برغم أنها تبدو فى نظرها غريبة الأطوار إلى حد بالغ ... ،

---

(١) كلمة odd فى اللغة الإنجليزية تعنى العدد الفردى ولكنها أيضا تعنى غريب الأطوار . (المترجم) .

إن المملكة التى ننتمى إليها هى الآن هذا العالم وعندما ينتهى العالم فسوف ننتهى نحن أيضاً .

وجد البروفيسور سكويربنت نفسه على اتفاق مع ١٣٧ فى هذا . غير أن الآخرين بما فيهم باى ، اعتبروه مهرطقاً واستداروا إليه وإلى البروفيسور فى الوقت نفسه .

امتدت الحشود اللانهائية إلى كل الاتجاهات وأحاطت بالبروفيسور التعس فى زئير غاضب ... ، عندئذ استجمع قواه وقد واتته حكمته اليقظة فجأة وهتف بصوت جهورى ما أنتم إلا مصطلحات رمزية .

راحت كل تلك الصفوف الهائلة تذوب فى الضباب وهى تولول ولولة الموت وعندما أفاق البروفيسور ألفى نفسه يقول : وسوف يحدث الأمر نفسه بالنسبة لأفلاطون .

كابوس ستالين

بعد أن احتسى ستالين جرعات وفيرة من الفودكا الممزوجة بالفلفل الأحمر ، سقط غارقاً فى النوم وهو فى مقعده . فما كان من مولوتوف ومالينكوف وبيريا إلا أن وضعوا أصابعهم على شفاههم تحذيرًا للخدم الذين قد يؤدى تطفلهم إلى إفساد هجعة هذا الرجل العظيم ... ، راحوا يحرسونه فى حين كان هو مستغرقاً فى الحلم وكان حلمه كما يلى :

نشبت الحرب العالمية الثالثة ، خاضها وخسرها ... ، ووقع أسيرًا فى أيدى الحلفاء ولما كانوا قد لاحظوا أن محاكمات نورمبرج ، قد ترتب عليها نشوء العطف على النازيين ، فقد قرروا فى هذه المرة أن يتبعوا أسلوباً مختلفاً ، وهكذا قاموا بتسليم ستالين إلى لجنة مكونة من الكويكرز البارزين الذين قرروا أنه يمكن بقوة المحبة أن يقتاد أى إنسان – حتّى ستالين – إلى طريق التوبة فيحيا حياة المواطن الوديع ، وإلى أن يتمّ هذا الإنجاز الروحى ، فلقد أدركوا ضرورة تزويد نوافذ غرفته بالقضبان حتّى لا يرتكب جريمة الهروب ، كذلك كان من الضرورى عدم السماح له باستخدام السكين فى تناول الطعام إذ قد

يستخدمها فى نوبة من نوبات الهياج فى مهاجمة أولئك المكلفين بإصلاحه .

كانوا قد أسكنوه غرفتين مريحتين فى منزل ريفى قديم ، غير أن الأبواب كانت موصدة دائماً باستثناء ساعة واحدة فى كل يوم ، حينما كان يصحبه أربعة من الكويكرز الأشداء فى نزهة سريعة يحاولون فيها حثه على الإعجاب بجمال الطبيعة والتمتع بتغريد البلابل ، وأما بقية النهار فقد كانوا يسمحون له بالقراءة والكتابة ، وإن كان من المحظور عليه أن يقرأ تلك الأعمال الأدبية التى تلهب العواطف ، وهكذا وضعوا بين يديه الإنجيل ، ورحلة الحاج ، وكوخ العم توم ، كما كانوا يسمحون له أحيانا بقراءة روايات شارلوت .م يونجه باعتبارها علاجاً .

كما منعوه من التدخين ، ومن تناول الخمر والفلفل الأحمر ، فى حين سمحوا له بتناول الكاكاو فى أى وقت يشاء من أوقات الليل والنهار ، حيث إن أبرز القائمين على أمره كانوا من المشتغلين بتوريد هذا المشروب البرىء ، وأما القهوة والشاى فقد سمحوا بتناولها بشىء من الاعتدال وليس إلى القدر الذى يؤثر على الأسلوب الصحى للنوم ، كما تم تخصيص ساعة من ساعات الصباح وأخرى من ساعات المساء لكى يقوم أولئك الرجال الوقورون الذين عهد برعايته

إليهم – بشرح مبادئ الخير فى المسيحية وتوضيح مدى السعادة التى سيجنيها إذا ما استطاع أن يدرك حكمتهم ، ولقد ألقيت مهمة مجادلته على عاتق ثلاثة ممن كانوا يعدون من أحكم أولئك الذين يرجى على يديهم أن يهدوه إلى طريق النور وكان هؤلاء الثلاثة يتمثلون فى السيد طوبياس توجود ، والسيد صموئيل سويت والسيد ولبراهام ولدون .

كان قد سبق له التعرف على هؤلاء الثلاثة فى أيام عظمته ... ، فقبل أن تنشب الحرب العالمية الثالثة بأمد غير طويل جاءوا إليه فى موسكو يلتمسون منه أن يقتنع بخطأ الطريق الذى يسير فيه ... ، تكلموا إليه عن الخير الأبدى وعن الحب المسيحى ... ، حدثوه فى عبارات جياشة عن تلك المسرات التى يشعر بها العبد المطيع ... ، كما حاولوا إقناعه بأن السعادة الحقة تنبع من كون الإنسان محبوباً لا من كونه مرهوبا .. ولقد أصغى إليهم حين ذاك فى شىء من الصبر الناتج عن الدهشة ثم انفجر فيهم صائحاً – ما الذى تعرفونه أنتم أيها السادة عن متع الحياة ومسراتها ... ، ثم تحول صياحه إلى ثورة هائجة – إنكم لا تعرفون إلا شيئاً ضئيلا جداً عن تلك النشوة المسكرة التى يشعر بها المرء وهو يتسلط على أمة بأسرها من خلال ما يبعثه من رعب ...

حينما تعلم أن أعداءك فى كل أنحاء العالم يحاولون عبثاً أن يصلوا

إلى ما يدور فى ذهنك ... ، حينما تعلم أن ما تملكه من القوة لا يكفى لإبادة جميع أعدائك فحسب ، بل ويكفى لإبادة جميع أصدقائك كذلك ... ، كلا أيها السادة إن أسلوب الحياة الذى تطرحونه علىّ لا يستهوينى ... ، عودوا إلى طريقتكم المتمحكة فى اجتلاب الربح المغلفة بادعاء الورع ، واتركونى لأسلك السبيل الأكثر بطولة من سبل الحياة .

عندئذ فزع الكويكرز وعادوا إلى ديارهم يرتقبون فرصة أكثر مواتاة ... ، كانوا رجالاً على قدر كبير من الخبرة فيما يتعلق بانحرافات الأحداث ... ، كانوا يكشفون عن عقدهم النفسية ويقودونهم بالحسنى إلى الاقتناع بأن الأمانة هى خير سبل الحياة .

قال **طوبياس توجود** ... : يا سيد ستالين ، إننا نأمل أن تكون قد أدركت الآن مدى ضلال الطريق الذى اتبعته من قبل ... ، إننى لن أحدثك عن الخراب الذى ألحقته بالعالم لأنك سوف تؤكد لى بأن هذا الأمر لا يحرك لك ساكناً ... ، لكن ضع نصب عينيك ما ألحقته بنفسك ... ، فلقد هويت من عليائك وغدوت مجرد سجين تافه الشأن ... ، وأما ما تتمتع به الآن من طيبات فهو يرجع إلى أن آسريك لا يقبلون مبادئك ... ، ولم يعد بإمكانك أن تتمتع بتلك المتع العنيفة التى حدثتنا عنها عندما زرناك فى أيام

عظمتك ... ، غير أنك إذا استطعت أن تحطم أغلال المكابرة ... ، إذا استطعت أن تخلص إلى التوبة وإذا استطعت أن تتعلم كيف نلتمس سعادتك فى سعادة الآخرين ... ، فلربما صار لك غرض ما ... ، وأصابتك القناعة والرضا فيما بقى لك من الحياة .

وعندئذ هب ستالين وهو يقول : فلتذهب إلى الجحيم أيها المهرطق القذر ، إننى لا أفهم مما تقول سوى شىء واحد ، هو أنك الآن فى القمة وأنا تحت رحمتك ، وأنك قد وجدت وسيلة لإهانة حظى العاثر أكثر إيلاماً وإذلالا من كافة الوسائل التى توصلت إليها أنا فى حركات التطهير .

حينئذ قال السيد سويت : يا سيد ستالين ، .. كيف ذهبت إلى هذا الحد من عدم العدالة والرحمة ، ألا ترى أنه ليس لدينا إزاءك إلا أسمى مقاصد الخير؟ ألا ترى أننا لا نستهدف إلا إنقاذ روحك .. ، وأننا آسفون لما نشرته من الكراهية والقسوة بين أعدائك وأصدقائك ؟ إننا لا نبغى إذلالك .. وأنك لو قدرت الأمور حق قدرها فسوف ترى أن ما نعرضه عليك هو الخلاص من المذلة .

عند ذلك صرخ ستالين : ، إن هذا شىء لا يطاق فعندما كنت صبيًّا سمعت كلاماً مثل هذا فى كلية القساوسة بجورجيا . ، لكنه كلام لا يصبر على سماعه شخص ناضج وإننى أتمنى لو كنت مؤمناً

بالجحيم فسوف كنت أتمتع بأن أرى رقتكم هذه وقد بددتها ألسنة النيران .

وهنا قال السيد ولدون : « يا للعار يا سيد ستالين ... ، إننى أدعو الله من أجلك ألا تهتاج ، ذلك أنه بالهدوء وحده يمكن لك أن ترى وجه الحكمة فيما نحاول أن تبنيه لك ، وتدخل السيد توجود مرة أخرى قبل أن ينفجر ستالين فقال : « إننى متأكد يا سيد ستالين أن رجلا فى مثل عظمتك لا يمكن أن تغيب عنه الحقيقة إلى الأبد غير أنك الآن مجهد ... ، لهذا أقترح أن تتناول فنجاناً من الكاكاو فسوف يعمل على تهدئتك بشكل أفضل من الشاى الذى يؤدى تناولك إياه إلى إثارة أعصابك .

وعند هذا الحد لم يستطع ستالين أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك ، فأمسك بقدح الشاى وسكبه على رأس السيد توجود فسأل السائل المغلى على وجهه ، غير أنه لم يزد عن أن قال : « يا سيد ستالين ليس هذا أسلوباً للمناقشة ، وفى هذه اللحظة أفاق ستالين وهو فى هيجان الغضب الذى استمر لحظة بعد صحوه وانعكست آثاره على مولوتوف ومالينكوف وبيريا الذين كانوا يرتجفون وقد كسا وجوههم الشحوب غير أنه ما إن انقشعت سحب النوم حتى تبخر غضبه وراح يلتمس الرضا فى احتساء جرعات عميقة من الفودكا والفلفل الأحمر .

كابوس أيزنهاور

أدرك أيزنهاور بعد عامين من توليه الرئاسة
أن المصالحة ما هى إلا طريق ذو اتجاه واحد
فلقد فعل الكثير من أجل استرضاء خصومه
الجمهوريين مفترضاً فى بادئ الأمر أنه سوف
يلقى استجابة من جانبهم ، غير أن شيئاً لم يلح
فى الأفق ، وفى غمرة إحباطه العميق ، راحت
الأفكار القاتمة تؤرق مضجعه خلال الشطر
الأكبر فى ليلة طويلة من ليالى الصيف ،
وعندما تسرب إليه فى النهاية نوم عسير داهمه
كابوس فتاك لاح فيه صوت من المستقبل يميط
اللثام عن تاريخ نصف القرن القادم .

نحن الآن ... ، ومن خلال مرفأ الأمن الذى بلغناه ببلوغنا مطلع القرن الحادى والعشرين نستطيع أن نرى ما لم نكن نراه بوضوح فى أوانه ، نستطيع أن نرى أن عام ١٩٥٣ قد شهد بداية اتجاه جديد

حوَل مجرى العالم .

كانت هناك بعض المشكلات التى استطاع ذوو البصيرة أن يدركوها فى ذلك الوقت ، من بين هذه المشاكل تفضيل الصناعة على الزراعة من قبل البلاد المتحضرة بما يترتب عليه من نقص المعروض من السلع الغذائية ، ومن بينها أيضاً ذلك التزايد السريع فى النمو السكانى فى الدول المتخلفة نتيجة للتقدم فى الطب ووسائل العلاج والوقاية ، ومن بينها كذلك ما قد يترتب من فوضى نتيجة انهيار الاستعمار الأوربى .

ولقد أصبحت أمثال هذه المشاكل بما فيها من الصعوبة غير قابلة نهائياً للحل نتيجة للصراع من الشرق والغرب والذى تصاعد تهديده تدريجياً خلال الثمانى سنوات التى انقضت ما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٣ لا من خلال التطورات السياسية فحسب ، بل من خلال احتمالات استخدام القنابل الهيدروجينية . ولم يقم أى من الجانبين بطرح أى حل لهذا الصراع اللهم إلا محاولة جعل أحد الطرفين من القوة بحيث لا يجرؤ الطرف الآخر على مهاجمته ، وهو الحل الذى أظهرت الخبرة السابقة أنه لا يمكن أن يعلق عليه آمال كبيرة فى تجنب الحرب .

وأما فى عام ١٩٥٢ فقد هلت بشائر أمل جديد إذ تقاعد ستالين ثم ما لبث أن توفى وخلفه مالينكوف الذى اعتقد أنه من الحكمة أن

يصبغ مجيئه إلى السلطة بطابع سياسة جديدة وإن كانت هذه السياسة قد اتبعت جزئيًا من قبل . كان هناك ثمة خطران يتهددانه أولهما القحط المتزايد فى روسيا وثانيهما الخوف من أن تصبح الصين قوة تطاول روسيا ، وتقدر على أن تتحداها فى هيمنتها على العالم الشيوعى . وفى سبيل مواجهة الخطر الأول كان من الضرورى زيادة الإنتاج الروسى من السلع الغذائية وهو ما لا يتأتى إلا على حساب التسليح ، كذلك كان من الضرورى لمواجهة الخطر الثانى تقليل احتمالات الحرب العالمية وهو ما يستلزم أيضًا تخفيف سباق إعادة التسليح ، ذلك فضلا عما قدمه من التأكيدات الجديدة انتقال الحكم إلى الجمهوريين فى أمريكا .

إن كثيرًا من الناس فى أمريكا وفى غيرها من البلاد عجزوا عن أن يدركوا أنه فى أى صراع بين الرئيس والكونجرس فإن النصر سوف يكون على الأرجح فى صف الكونجرس لقوة تأثير المال ، وهذا هو ما يمكن أن يستقى من تاريخ الصراع بين الملك والبرلمان فى إنجلترا فى القرن السابع عشر غير أن معظم الأمريكيين لم يكونوا يعتقدون أنه يمكن تعلم أى شىء ، لا من أحداث الماضى ولا من الدول الأخرى وهكذا تصور الكثيرون ممن صوتوا فى الانتخابات لصالح أيزنهاور أن انتخابه سوف يعنى تطبيق السياسة التى ينادى بها ، ولم يدر بأذهانهم

أنهم حينما ينتخبونه فإنما يعطون السيطرة فى الكونجرس لتافت ومكارثى وقد كان الرجلان هما اللذان سيطرا فى الواقع على سياسة الولايات المتحدة إبان فترة رياسة أيزنهاور ثم بدأت قبضة مكارثى وحده تتزايد إحكاماً بعد ذلك .

* * *

كان الأمريكيون العاديون يسيطر عليهم نوعان من الخوف أولهما الخوف من الشيوعية ، وثانيهما الخوف من ضريبة الدخل ، وقد كان هذان النوعان من الخوف يمارسان مفعولها فى اتجاهين متضادين فى ظل وجود الديموقراطيين فى السلطة ، لكن « مكارثى » اكتشف طريقة للتوفيق بينهما ، فقد قال بأن العدو الحقيق هو الشيوعية القابعة بين صفوفنا ، وأن من الأيسر بكثير أن نقاتل الشيوعية بيننا بدلا من أن نقاتل روسيا ، وأعلن على الأمة أنه طالما كان الأمريكيون أوفياء متحدين فإنهم سوف لا يقهرون ، ولا ينبغى لهم من ثم أن يشعروا بالخوف من مكائد الطغيان الأجنبى ، وقال إننا إذا طهرنا بلادنا من العناصر غير المخلصة فسوف نعيش فى أمان ، غير أنه كان من الضرورى وحتى تتحقق هذه السياسة أن يتم إرواء الظمأ العام نحو مقاومة الشيوعية ، وهو ما كان يستلزم اكتشاف أعداء جدد فى الداخل وبشكل مستمر ، ولقد نجح مكارثى عن طريق تولى

المخابرات الفيدرالية ومع الاستعانة ببعض الأعوان من الشيوعيين السابقين فى توسيع نطاق الفزع من الخيانة الداخلية إلى حد أن كل عضو بارز فى الحزب الديمقراطى قد أصبح يظن أنه خائن باستثناء قلة ضئيلة من الأعضاء الفاضلين مثل السناتور « ماكاران » .

وفى ظل هذه السياسة أمكن توفير مبالغ طائلة كان من الضرورى إنفاقها فى عهد « ترومان » فى مساعدة الدول الأجنبية ، فى حين أن انتشار الشيوعية فى إيطاليا وفرنسا كان يثبت بوضوح عدم جدوى إنفاق المال على أمثال هؤلاء الحلفاء الذين لا يمكن الاعتماد عليهم .

وعلى الرغم من أن أيزنهاور كان يكره هذه السياسة إلا أنه وجد نفسه عديم الحول إزاءها . كان يرغب فى تقوية حلف شمال الأطلنطى ، حتى يتسنى الدفاع عن أوربا الغربية ضد أى هجوم شيوعى ، غير أن الدفاع عن أوربا كان باهظ التكاليف فهى تضم عدداً كبيراً من الشيوعيين وعدداً أكبر من الاشتراكيين البغيضين بنفس القدر . إنها جاحدة وغير مدركة لتخلفها إدراكاً كافياً كما أنها كانت تطالب دائماً بخفض التعريفة الجمركية فضلا عن أنها لا تحب « شيانج كاى شيك » ، ولهذه الأسباب كان الكونجرس يخذل أيزنهاور دائماً .

وأما سياسة مكارثى فقد ترتبت عليها نتيجتان ، تتمثل أولاهما فى

تقليل أسباب الصراع الخارجي إلى قدر كبير ، وجعل العلاقات مع روسيا أقل تزعزعًا . وتتمثل ثانيتهما : فى أنه قد أصبح واضحًا لكل أمريكي أنه لا يمكن أن ينجو بجلده إذا ما عارض مكارثى .

وعندما أجريت انتخابات الرياسة فى عام ١٩٥٦ فاز فيها مكارثى بأغلبية تتجاوز بكثير أغلبية روزفيلت منذ عشرين عاماً سابقة ، وقد كان هذا النجاح الساحق هو الذى مكن مكارثى من أن يتوج أعماله بعقد حلف مكارثى – مالينكوف والذى تم فيه تقسيم العالم بين القوتين العظميين ، وبمقتضى هذا التقسيم كانت آسيا والأجزاء الأوربية الواقعة شرقى خط التقسيم تدخل ضمن القسم الروسى ، فى حين تدخل أفريقيا وأستراليا والأجزاء الأوربية غربى خط التقسيم ضمن القسم الأمريكى ، ولم يكن ثمة حاجة إلى التبادل التجارى أو أى نوع من التعامل بين المجموعتين باستثناء بعض اللقاءات الديبلوماسية الحتمية والتى كان ينبغى عقدها فى سبيتزبرجن ، لذلك كان ينبغى تخفيض حجم الصناعة خارج الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة إلى الحد الأدنى عن طريق السيطرة على المواد الخام بل اتخاذ الإجراءات الصارمة إذا اقتضى الأمر .

وأما بالنسبة للمواطنين فى أوربا الغربية ، فقد أريد لهم أن يظلوا مستقلين من الناحية الاسمية ، بل كان لهم أن يحتفظوا إذا شاءوا

بنظامهم العتيق من الحكم الحزبي وحرية الرأى والصحافة ، غيرأنه كان ينبغى ألا يسمح لهم بالسفر إلى الولايات المتحدة خشية أن يصيبوا المواطنين الصالحين بعدوى تخريفاتهم الموروثة .

ولقد اتبعت بعض ملامح النظام الروسى فى أمريكا إذ لم يسمح إلا بقيام حزب واحد هو الحزب الجمهورى من الآن فصاعداً كما أخضعت الصحافة والأدب لرقابة صارمة ، كذلك كان النقد السياسى بكافة أشكاله يعد نوعاً من التخريب يعرض صاحبه للعقوبة الجنائية ، كما أصبح التلقين العقائدى هو الهدف الأساسى للتعليم .

ولقد شهدت مفاوضات إنشاء الحلف بعض الصعوبات وكانت اليابان واحدة من تلك الصعوبات ، ذلك أن أمريكا كانت قد أعادت تسليح اليابان بقصد أن تصبح هذه الدولة حليفة لها ضد روسيا ، ولما كانت كل من روسيا وأمريكا بصدد الاشتراك فى السيطرة على العالم فإن وجود قوة قوية مستقلة كان أمراً لا يمكن التساهل فيه ، وهكذا أجبرت اليابان على نزع أسلحتها ، ووضعت جزيرة هوكايدو ضمن القسم الروسى ، فى حين وضعت بقية أجزاء اليابان ضمن قسم الولايات المتحدة ، كذلك كان هناك بطبيعة الحال بعض الترتيبات المتعلقة بالدعاية إذ تم الاتفاق على حظر الدعاية المعادية لأمريكا فى روسيا ، والدعاية المضادة لروسيا فى

أمريكا ، ولم يكن من المسموح به لأى شخص فى روسيا أن يحاول تمحيص تلك الحقيقة التاريخية التى تقول بأن بطرس الأكبر كان أمريكياً ولم يكن من المسموح به لأى شخص فى أمريكا بأن يشك فى تلك الحقيقة التاريخية التى تقول بأن كولومبس كان روسياً . ولم يكن لأى شخص فى روسيا أن يتعرض لمشكلة الملونين فى الولايات الجنوبية . ولا لأى شخص فى أمريكا أن يتعرض لمشكلة العمل بالسخرة فى روسيا ، كان ينبغى على كل منهما أن يمتدح إنجازات الآخر وأن يشيد بتلك الفوائد التى يخبئها المستقبل العريض لتحالفهما الأبدى .

وأما فى أوربا الغربية فإن الحلف لم يكن يلقى قبولا شعبياً لأنه قد أنزل هذه المنطقة إلى عالم الانزواء الذى جلبته لنفسها من خلال حروبها المدمرة .

كان من العسير على أوربا الغربية أن تسلم بفقدانها منزلتها ، إذ إنها ظلت تسيطر على العالم طوال قرون عديدة سواء من الناحية السياسية ، أو من الناحية الحضارية ، ولهذا تم إعداد عدد كبير من الأمريكيين لمعالجة أوربا من داء احترام التقاليد – تلك التقاليد التى ساعد اتباعها حينما اتبعت على بناء المدنية الأمريكية ، والتى تبدو الآن لديها تقاليد متطرفة بعد أن أصبحت دولة فعلا .

كان من الواضح أن الحرب سوف تلحق الدمار بما تبقى من الحضارة الأوربية حتى لو أمكن فى النهاية إلحاق الهزيمة الكاملة بروسيا ، ولم يكن من الواضح أن الحرب يمكن تلافيها ببذل أى مجهود أو أى تضحية سوى قيام الحلف ، وبناءً على هذا ، فعندما أبرم الحلف تم تجاهل مشاعر المواطنين فى أوربا الغربية .

كان هناك بطبيعة الحال أناس فى كلا الجانبين يتصورون أن الجانب الآخر هو الذى فاز بأفضل ما فى الصفقة كما لمّح بعض الروسيين إلى أنه يمكن لهم قبل مضى زمن طويل – وبمساعدة الصين – أن يحصلوا على أستراليا ، كما أن لديهم أملا كبيراً فى الحصول على ألمانيا الغربية عن طريق التغلغل السلمى ، كما قالوا أيضاً بأن أفريقيا وإن لم تحصل عليها روسيا ، فإنها يمكن تطهيرها من الرجل الأبيض إذا ما أمكن امتصاص طاقات أمريكا وأوربا الغربية بشكل مستمر فى المواجهة مع روسيا .

وأما فى الجانب الأمريكى فقد كانت هناك كذلك بعض الشكوك الخطيرة إذ لم يكن مما يستقيم مع طبيعة الأمور أن تتم التضحية بقصدير الملايو ومطاطها ، وإن كان فى الألياف الصناعية وفى قصدير بوليفيا وأستراليا البديل الكافى ، كذلك فإن الشىء الأخطر هو فقدان بترول الشرق الأوسط ، وحتى يصبح الأمر محتملا

تم الاتفاق فى النهاية على ضرورة أن تصبح أندونيسيا ضمن الكتلة الأمريكية .

* * *

كان هناك فى أمريكا بعض الناس الذين يقتنعون اقتناعاً جازماً بأن الشيوعية شر لا ينبغى مهادنته أو مصالحته ، غير أنهم كانوا قلة قليلة ، ومن الديموقراطيين فى الغالب ، لهذا فلم يكن لرأيهم وزن يذكر ، وأما فى روسيا فإن المغنم الأكبر – فضلا عن تحقيق المصالحة – كان يتمثل فى سنوح الفرصة لجعل الصين فى مركز التبعية عن طريق إيقاف التنمية الصناعية بها ، وأما بالنسبة لكلا المعسكرين فلقد أمكن تحقيق الاستعمار الأبيض مرة أخرى . وفضلا عن تحقيق السلام فقد كان للحلف مزايا أخرى ، ذلك أن الخلافات بين الشعوب البيضاء كانت قد أحدثت نوعاً من التصدع بالنسبة لمناطق الدومنيون التى أمكن الحصول عليها فى آسيا وأفريقيا خلال القرن التاسع عشر ، ثم أمكن بفضل الحلف إعادة تمكين الروس من غزو الهند وباكستان دون صعوبة تذكر ، وأما فى أفريقيا حيث كانت الانتفاضات البربرية الهائجة التى يدعمها الشيوعيون تهدد الإنجازات الحضارية التى قام بها الاستعمار البريطانى والفرنسى ، فلقد أمكن استئناف هذه الإنجازات فى ظل المستثمرين الأمريكيين وسرعان

ما أثمرت ثمارها الناجحة .

أما مشكلة التزايد السكانى والتى كان يعتقد أن التماس حلها عن طريق تحديد النسل هو أمر غير أخلاقى ، فقد أمكن السيطرة عليها عن طريق حظر كافة أنواع الرعاية الطبية إلى الزنوج وكذلك كافة الإجراءات التى يقوم بها البيض لتحسين ظروفهم الصحية ، ومع ارتفاع معدل الوفيات الذى ترتب على هذا أمكن للرجل الأبيض أن يتنفس الصعداء مرة أخرى .

* * *

وعلى الرغم من كل هذه المنافع كان ما يزال بعض الناقمين . كان هناك أناس يقولون : إنه مما يدعو إلى الأسف ألا يمكن نشر أعمال أى شخص يهودى فى أى مكان ، وكان هناك فى أمريكا أولئك الذين يودّون لو قرءوا قصائد الشعراء الذين يتغنون بالحرية مثل ميلتون وبيرون وشيللى ... كانت أعمال هؤلاء الشعراء قد ظلت تقرأ فى أوربا طوال فترة من الوقت ، غير أنه عندما نمى إلى علم الكونجرس أنها توزع فى طبعات رخيصة الثمن تقرر توقيع العقوبات الاقتصادية حتى يتم إدراجها فى زاوية النسيان . لقد تم تحقيق الرفاهة المادية فى العالم الجديد الذى حققه الحلف ، لكن لم يكن ثمة فن أو فكر وإن كان ثمة قدر جديد ضئيل من العلم ، كما تمّ حظر الفيزياء النووية

حظرًا تامًّا بطبيعة الحال ، كما أُحرقت كل الكتب التى تتناول موضوعاتها وسيق كل الأشخاص الذين يتوسم فيهم معرفة أى شىء عنها إلى معسكرات العمل بالسخرة .

أبدى بعض الرومانسيين أسفهم على تلك القرون التى شهدت أفرادًا عظماء ، غير أنهم لو كانوا على قدر من الحكمة لاحتفظوا بأسفهم لأنفسهم .

كانت هناك فى البداية بعض الشكوك حول الرقابة على الحلف ، لكن مكارثى ومالينكوف قد وجدوا نفسيهما متطابقين ومتحدين فى الأهداف ، بحيث لم تثر أية صعوبة فى سبيل التعاون المخلص ، كما عين كل منهما خلفاً له يحمل نفس مبادئه — ولقد أثبتت ثلاثة وأربعون عاماً للجميع — اللهم إلا قلة من المشاكسين — أن هذا الحلف خالد ونافع فى نفس الآن .

فلنتوجه بالعرفان إلى هذين القائدين العظيمين اللذين حققا السلام للعالم .

كابوس دين آتشيسون

حلم « دين آتشيسون » فى أثناء فترة تقاعده بأنه قرأ مقالا فى إحدى صحف الحزب الجمهورى يقول : « إن دين آتشيسون – كما يحلو لكل ذوى العقول السليمة أن يعرفوا – يعانى من الجزاء العادل لجريمته ، فنحن جميعاً نذكر أنه بعد استجوابه ست ساعات متصلة بمعرفة إحدى لجان الكونجرس تكلم عن واقعة معينة كانت قد حدثت منذ سبع سنوات سابقة ، وقال إن اليوم الذى حدثت فيه كان يوم الثلاثاء ثم أثبتت الدلائل القاطعة أنه كان يوم الأربعاء ، وعلى هذا الأساس قدم للمحاكمة بتهمة الحنث باليمين ، فأدين وحكم عليه بالسجن المؤبد .

وعلى الرغم من هذه الإدانة فقد ظل سادراً فى غيّه وظل متشبثاً أمام كل الذين سمح لهم برؤيته بأن السياسة التى حلت محل سياسته ، سوف تقود حتماً إلى كارثة ، ثم تغيّرت طبيعة الحلم بعد أن قرأ هذا المقال ، وبدا له أن الحجاب الذى يخفى المستقبل قد انقشع ، ولاح من خلاله طيف صوت ذى نبرات جنائزية ينبئه ببقية الأحداث التى

سوف تقع .

قال الصوت : هذه هى أنشودة الأوزة للسناتور « مينلاوس بلوجز » والذى يكاد يشرف على الهلاك بشكل بائس فى جزر فولكان .

هناك من يوجهون اللوم إلى زعيمنا الخالد « بسمارك أ . ماكسافت » لما تشهده أرض بلادنا من خيبة فى الآمال ، لكنهم ظالمون فى لومهم وينبغى علىّ قبل موتِى أن أشهد بالنبل البطولى الذى كان يتسم به هذا الرجل الفاضل العظيم والعملاق فى نضاله من أجل الحق ، إننى لن أعمر طويلا فى هذا العالم . ولقد سعيت مع ملايين الآخرين نبحث عن تلك الشواطئ المحايدة اعتماداً على ما تقول به تقارير مكتب الصيد من أن كمية الأسماك فى خطوط العرض الجنوبية غير قابلة للنفاد ، لكن يا للأسف كنا لا نعرف إلا قليلا عن الموارد العلمية ، لقد ماتت بفعل الإشعاعات جميع الأسماك الموجودة فى دائرة نطاقها ألف ميل من هذا الأرخبيل الذى تتقاذفه العواصف .

وعندما أشارت التقارير لأول مرة إلى حوادث الهلاك تلك جازف بعض المتهورين بتناول مثل هذه الأسماك والتى لم يكن قد مضى على هلاكها وقت طويل ... ، وياللأسى والحسرة على أولئك الرجال ، لقد أثبت البلوتونيوم داخل معداتهم أنه فتاك فماتوا

وهم يعانون آلاماً مبرحة مخيفة .

ولما كنا قد حرمنا من الأسماك فسرعان ما التهمنا تلك الماشية القليلة والأغنام التى من شأنها أن توجد فى المراعى الضئيلة لهذه الشواطئ تحت القطبية التى لا تعرف كرم الضيافة ، وها نحن الآن مثل الغزلان البرية نقتات الأعشاب ، غير أن الأعشاب للأسف ليست زاداً لا ينفد ، ومن ثم فإن أولئك الذين ظلوا خارج السجون من بين هذه البقية الباقية من حطام العالم الحر ، سرعان ما سوف يصيبهم الهلاك ، أما بالنسبة للعبء الملقى على عاتقى فإن علىّ واجباً إزاء الأجيال المقبلة إن كان ثمة واجب على الإطلاق .

إن ذلك الرجل الصالح العظيم سوف يتم التشهير به وتشويه صورته من قبل أعدائه الذين تمكنوا من الإطاحة به . سوف يهوى إلى حضيض العار من خلال ما يسميه أولئك الحقراء بالتاريخ ، لكننى وجدت علبة لا تنفذ الإشعاعات إلى داخلها ، سوف أضع داخلها هذا السجل وأدفنه على ثقة فى أملى بأن يقوم علماء الآثار فى أحد الأجيال المقبلة باستخراجه ، ومن خلاله سوف يتم إنصاف هذا الرجل العظيم الذى غاب عن العالم . إننا – ونحن فى هذه الجزر ، وما تزال قلوبنا تخفق بالذكرى ، ذكرى تلك البهجة التى عاشها ذوو العقول السليمة ، عندما تبين فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ أن مصائر أمتنا

العظيمة قد خرجت من بين تلك الأيدى الضعيفة لأتباع ترومان وآتشيسون ، وكذلك أيْدِى أتباع آيزنهاور التى لا تقل عنها ضعفاً والتى لم تكن إلا صنائع للكرملين ، ثم ها هى ذى أخيراً يتم تأمينها على مدى سنوات أربع حاسمة من خلال الوطنية الصلبة التى لا تلين لبسمارك أ. ماكسافت ، فبمجرد أن تولى الرئاسة بدأ يمضى قدماً فى اتخاذ تلك المواقف القوية والتى أصبحنا نتوقعها لدى استماعنا إلى خطاباته الشعبية التى تتسم بالاتساق الثابت الذى لا ينحرف .

لم يعد ينبغى بعد الآن للطاقات الأمريكية ولا للحماس الأمريكى نحو اليمين أن تكبل حركته تلك الدول الجبانة فى غربى أوربا ، ولم يعد ينبغى أن نسمح للخونة ولا للشيوعيين المستترين بأن يزعموا بأن شيانج كاى شيك رجل له أخطاؤه ، وأن الصينيين لا يحبونه . لقد تم إرسال جيش هائل حتى يتبوأ مقعد السلطة فى بكين ، لكن الشيوعيين الصينيين أظهروا تلك الكراهية الخسيسة التى ما كنا لنتوقع سواها منهم ، لقد تجنبوا المعارك النظامية واستدرجوا أبناءنا الشجعان شيئاً فشيئاً إلى الجبال القاحلة .

أرغمونا على بعثرة قوانا على مدى مساحات واسعة للدفاع عن المدن وخطوط السكك الحديدية والطرق الحيوية ، ولقد أمكن لنا أن نحكم سيطرتنا على شرق الصين فيما يبدو ، غير أن الغرب مازال

يروغ من قبضتنا ، بدأ المزيد من قواتنا ينخرط شيئاً فشيئاً فى القتال ولم تكن قنابلنا الذرية لتجدى شيئًا وهى تستنفد فى تلك المساحات الشاسعة حيث يندر السكان وحيث انقسمت جيوش العدو إلى مجموعات من العصابات المتنقلة .

وفى نفس الوقت – وكما هو متوقع – استدار الروس إلى شعوب غربى أوربا البائسة وأنزلوا بها ما أصبح أمرًا محتوماً بفعل نزعاتهم الحقيرة للمحافظة على وجودهم .

وبدون مقاومة تذكر استطاع الروس احتلال : الروهر ، واللورين ، وشمال فرنسا ، وقاموا بتسخير ذوى المهارات الصناعية من السكان بالعمل فى تلك المناطق المحلية ، أما أولئك الذين لا يتمتعون بمثل هذه المهارات فقد أرسلوا لتقطيع البلوط فى غابات الملاك الأعظم ، أو لاستخراج الذهب من مناجم شمال شرق سيبيريا .

وقد استطاعت الغواصات الروسية أن تجعل الاتصال بالقوات الأمريكية فى الصين أمرًا محفوفاً بالمخاطر ، وفى النهاية بلغت الصعوبات التى يعانونها حدًا أوجب إعادتهم إلى أرض الوطن .

أما أمريكا اللاتينية ابتداء من ريو جراندى إلى رأس القرن ، فقد قامت فى الوقت ذاته باعتناق المذهب الشيوعى ، وأما آسيا

وباستثناء تلك المناطق التى تحتلها القوات الأمريكية فعلا فقد مالأت موسكو منذ زمن طويل ، وفى أفريقيا أسفرت مجهودات الدكتور « مالان » عن تحويل الإفريقيين إلى الشيوعية ، وخلال غزو القوات الروسية لأوربا الغربية ، تم ذبح كل رجل أبيض فى أفريقيا من رأس بن إلى رأس الرجاء الصالح .

وبعد أن تمكن الروس من احتلال جنوب أفريقيا قامت الطائرات العملاقة بنقل القوات والذخائر إلى أمريكا اللاتينية ومن خلال مجهودات الدعاية المكثفة تم إقناع السواد الأعظم من سكان بيرو ، وبوليفيا ، والبرازيل ، بأن روسيا هى النصير البطل الذى يمثله الرجل الأحمر فى مواجهة القمع الذى يمارسه البيض ، ثم قامت الجحافل الهائلة من الحمر الذين شجعتهم المذابح الهائلة والذين تم تنظيمهم وتسليحهم بواسطة الكرملين بالتوغل فى المكسيك فى مواجهة البقية الباقية من ذلك الجيش الذى أعيد من الصين وإنه لجيش أثبطت الهزيمة من روحه المعنوية وأوهنت الملاريا قواه كما أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا من عدالة قضيته وإن كنت أعترف بأن هذا عار فى حد ذاته .

وعندما تبين لى أن كل شىء قد انقضى أبحرت وآخرين على سفينة .

لقد عشت – ويا للعار – حتى أرى المنجل والمطرقة ترفرف على مبنى الكابيتول .

إن سفينتنا الواهية – ربما تغرقها البنادق الروسية بين لحظة وأخرى ، غير أن العناية الإلهية حجبتنا عن الأنظار بفعل ضباب مفاجئ كثيف وهكذا نجونا . هناك بيننا من يقولون إن هذه الأحداث المأسوية تبرهن على فشل سياسة زعيمنا العظيم ، إن أولئك الذين يقولون ذلك لا يدركون الاعتبارات الأخلاقية ، ذلك أن من النبل بمكان أن نحارب من أجل الحق وأن نموت ميتة تاريخية ، لا أن نوقع أنفسنا فى شراك السياسة المتهاودة التى تمكننا من النجاة بأجسادنا دون أرواحنا .

حقاً إن الولايات المتحدة لم يعد لها وجود من الناحية المادية غير أنها من الناحية الأخلاقية ستظل إلى أبد الدهر شعاعاً هادياً ، ووهجاً ساطعاً لكل أولئك الذين نقشت على أعلامهم الخالدة تلك الكلمات العظيمة لآخر رؤسائنا وأنبلهم .

« سوف نحارب من أجل الحق ، حتى لو هوت السماء » .

سوف نحارب من أجل الحرية ، حتى لو استلزم الأمر أن نعتقل تسعة أعشار المواطنين . بهذه الكلمات الخالدة المنقوشة فى قلبى أهيئ نفسى للموت فى سلام . آمين .

وكم كان تأثر آتشيسون كبيرًا بهذه الحكاية الغريبة والحزينة التى بدا له أن من المستحيل ألا يصدقها باعتبارها إطلالة حقيقية على المستقبل .

وقد أسر باعتقاده هذا حول وحى السناتور « بلوجز » إلى النائب العام مما جعله يؤيد التماسًا لإعادة النظر فى العقوبة الموقعة عليه على أساس اختلال القوى العقلية . صاح دين أتشيسون ولكننى لست مختلا . وبهذه الصيحة استيقظ من نومه .

كابوس الدكتور فولبس

قضى الدكتور « سوثبورت فولبس » يوماً مضنياً فى وزارة الإنتاج الآلى حيث كان يحاول إقناع الموظفين بأنه لم تعد ثمة حاجة إلى استخدام الكائنات البشرية فى المصانع باستثناء فرد واحد لكل مبنى يقوم بمهمة الملاحظة وإدارة المحوّل فى حالة التشغيل أو الإبطال . كان شديد الحماس وكلما واجهته عقلية البيروقراطيين – تلك العقلية البطيئة المتخلفة – كان يشعر بالارتباك والحيرة .

قالوا إن مشروعاته تستلزم نفقات رأسمالية ضخمة فى سبيل قيام المصانع التى يديرها الإنسان الآلى ، وقالوا إنها قد تتعرض للتحطيم نتيجة لهياج العمال الأجراء ، أو أن تشل حركتها بتعليمات من النقابات الساخطة ، غير أن مثل هذه المخاوف كانت تبدو بالنسبة إليه تافهة وغير متصورة .

كان يدهشه أشد الدهشة أن هذه الرؤى العظيمة التى يلتهب بها وجدانه لم تستطع ولأول وهلة أن توقد جذوة مماثلة من الآمال فى نفوس أولئك الذين كان يستهدف توصيلها إليهم .

غاص فى مقعده متعباً ومحبطًا بعد تعرضه لرذاذ غاز الميثين البارد . سرى الدفء فى أوصاله فاستغرق فى النوم وفى منامه عايش ذلك الانتصار الذى طالما أفلت منه فى ساعات يقظته . راح يحلم وكان الحلم لذيذاً :

الحرب العالمية الثالثة -- مثل حصار طروادة -- فى عامها العاشر وباللغة العسكرية فإن سير المعارك لم يكن حاسماً إذ كانت تباشير النصر تلوح أحياناً فى جانب معين ثم تلوح أحيانًا أخرى فى الجانب المقابل ، لكن الكفة لم ترجح نهائياً لأحد الجانبين ، بل إنها لم تستمر راجحة لأيهما فترة طويلة ، وأما من الناحية الفنية وهى وحدها ما يهمّ به الدكتور فولبس فإن تصاعدها ما كان يهفو إليه ، ففى خلال العامين الأولين من الحرب تمّ إحلال أفراد الإنسان الآلى محل العمال الأحياء فى جميع المصانع بكلا الجانبين ، وقد أمكن بهذا تدبير احتياطيات هائلة من القوّة البشرية للجيوش المتحاربة ، بيد أن هذا التقدم الذى رحبت به الحكومات بحماس فى بداية الأمر ، قد أثبت أنه ليس مرضياً كما كان مأمولا ، ذلك أن أعداد الضحايا الناجمة عن الحرب البكتريولوجية أساساً كانت أعداداً كثيفة وفى بعض مناطق الجبهة الشاسعة تمرّد الناجون من الموت فى أعقاب الأوبئة الفتاكة ، وأخذوا يطالبون بالسلام . ثم مضت فترة معينة كانت الحكومات المتحاربة

شيا يائسة فعلا من إبقاء الحرب مشتعلة ، لكن كلاً من الدكتور فولبس ونظيره المقابل « فينيشوفسكى ستوكنا دوفيتش » سرعان ما وجدا سبيلا للتغلب على هذه الأزمة فقد قاما خلال العام الثالث والرابع من الحرب بتصنيع أفراد عسكريين من الإنسان الآلى حلوا محل جنود المشاة فى كلا الجانبين ، ثم قاما فى العام الخامس والسادس بتوسيع نطاق هذه العملية بحيث شملت كافة رتب الضباط الذين هم دون رتبة الجنرال ، ثم اكتشفا أيضًا أن مهمة التعليم – أو بالأحرى مهمة التلقين العقائدى ، كما أصبحت تسمى الآن رسميًّا – يمكن أن تضطلع الآلات بأدائها على نحو يفوق بكثير ما يقوم به المدرسون والأساتذة الأحياء من حيث مدى الدقة والضمان نظراً لما تبيّن من صعوبة إلغاء الفروق الشخصية إلغاءً تاماً بين التربويين الأحياء ، فى حين أن التربويين الذين تم تصنيعهم على نطاق واسع بمعرفة الدكتور فولبس والرفيق ستوكنادوفيتش كانوا يقولون تماماً نفس الشيء وكانوا يقومون بإلقاء نفس الخطب الحماسية عن أهمية النصر ، ومن ثم فقد كان التحسن المعنوى المترتب على ذلك تحسناً ملحوظاً ، فمع حلول العام الثامن من الحرب لم يكن ليخشى الموت المؤكد أى واحد من أولئك الشبان الذين تم تدريبهم على أعمال القيادة العليا للجيوش الآلية الكثيفة فى المناطق الموبوءة بالطاعون

حيث كان يرابط المتحاربون ، وعندما كانوا يموتون كانت البراعة الفنية المتزايدة تكتشف شيئاً فشيئاً تلك الوسائل الكفيلة بالتعويض عن قوتهم بما يفيض عن المطلوب . وفى النهاية أصبح أفراد الإنسان الآلى يؤدون كل شىء تقريباً ، ومع هذا فقد تبين عدم إمكان الاستغناء عن بعض الكائنات البشرية ومن بينهم الخبراء الجيولوجيون الذين يقومون بتوجيه عمال المناجم الآليين إلى المناطق المناسبة ، ومن بينهم كذلك أعضاء الحكومات الذين يقومون باتخاذ القرارات الهامة فى مجال السياسة ، ومن بينهم فضلا عن ذلك وبطبيعة الحال كل من الدكتور فولبس والرفيق ستوكمادوفيتش لكى يقوما بتكريس عقليهما العظيمين نحو آفاق جديدة من البراعة .

كان الرجلان كلاهما ممتلئين بالحماس من أعماقهما ، كما كانا فوق مستوى المعركة بمعنى أنهما لم تكن لتعنيهما تلك البلاغات التى يصدرها السياسيون والتى يفرغون فيها فصاحتهم ، لم يكن ليعنيهما فى الواقع إلا تحسين آلاتهم إلى أقصى حد .

كان -- كلاهما -- يحبان الحرب لأنها هى التى جعلت السياسيين يمنحونهما هذا المجال ، ولم يكن أحدهما يتمنى أن تنتهى الحرب إذ كانا يخشيان أن يؤدى انتهاؤها إلى تكاثر الناس بالوسائل المألوفة ، وإلى إصرارهم مرة أخرى على أن يقوموا باستخدام عقولهم

وعضلاتهم فى أداء هذه الأشياء التى يقوم بها الإنسان الآلى حالياً بإحكام تام ، ودون تعب ، ولما كانت أهدافهما متطابقة ، فقد كانا صديقين حميمين وإن كان هذا ينبغى أن يظل سراً يجب إخفاؤه عن أعين السياسيين الذين قاموا بتوظيفهما .

كانا قد استخدما جانباً من أفراد جيوشهما الآلية فى حفر نفق هائل عبر جبال القوقاز وكان أحد فوهتى النفق يقع تحت سيطرة قوات الغرب فى حين كان الآخر تحت سيطرة الشرق ولم يكن أحد يدرى – باستثناء الدكتور فولبس والرفيق ستوكنادوفيتش – أن للنفق فوهتين ذلك أنهما لم يسمحا لأحد غيرهما وغير الأفراد الآليين أن يلج إلى داخل النفق ، وقد قاما باستخدام الأفراد الآليين فى تدفئة النفق وإضاءته إضاءةً جيدة وكذلك فى ملئه بمخزون ضخم من الطعام المعبأ فى كبسولات أعدت بطريقة علمية لكى تجلب الصحة والحياة وإن كانت غير قادرة على جلب المتعة للحلق والبلعوم ، ذلك أنهما كانا يعيشان حياة يحكمها العقل غير عابئين بالملذات الحسية .

وفى أحد المؤتمرات الدورية التى كان يعقدها الدكتور فولبس مع الرفيق ستوكنادوفيتش ، وعندما كان على أهبة الدخول إلى النفق سمح لبعض الانطباعات غير المحترفة أن تتسلل إلى نفسه حول العالم المضاء بضوء الشمس والذى كان قد هجره مؤقتاً لحضور المؤتمر .

راح يحملق فى البحر الجاثم عند السفح ، وفى القمم الثلجية الشامخة فى الأعالى عندما طفت إلى ذهنه ذكريات غائمة من رواسب التعليم التقليدى والذى أضاع فيه مكرَهًا سنوات مبكرة من حياته بأوامر والديه المتخلفين عن روح العصر.

هنا كان « بروميثيوس » وقد شد وثاقه « زيوس » راح يتذكر تلك الرواسب عن بروميثيوس الذى قام بالخطوة الأولى فى مضمار هذا التقدم المجيد للعلم والذى أثمر عن ذروته العظيمة الراهنة .

قال لنفسه إن زيوس كان شأنه شأن الحكومات التى عرفتها فى شبابى يفضل الأساليب العتيقة ، لكن بروميثيوس ، لم يكن شأنه كشأنى وشأن صديقى ستوكمادوفيتش إذ لم يستطع أن يقهر بدهائه أولئك الرجعيين فى زمانه . وأنه لأمر لائق أن أنتصر فى نفس البقعة التى عانى فيها ، كما أن زيوس بما لديه من صواعق تافهة ينبغى أن يوضع فى مكانه بفضل مهارتنا النووية .

وودع ضوء النهار بهذه الكلمات ثم تقدم لملاقاة صديقه .

كانت لهما مؤتمرات سرية عديدة خلال الحرب حيث كانا يطرحان على بعضهما بمنتهى الثقة المتبادلة أفضل المخترعات التى تساعد على ضراوة الحرب واستمرارها ، كان يلتقى فى منتصف النفق بصديقه ستوكمادوفيتش آتياً من الشرق فيتصافحان ويرنو كل منهما

إلى عينى الآخر فى دفء عاطفى ، كما كانا يسمحان لأنفسهما قبيل أن تجرفهما التعقيدات الفنية بلحظات قليلة يحتفيان فيها بعملهما المشترك ... ، كانا يقولان لبعضهما «يا لجمال العالم الذى نقوم بخلقه ... ، إن البشر لا يمكن التنبؤ بسلوكهم فهم مجانين تارة ... ، جبناء تارة أخرى ... ، وهم مشحونون بالمثل المضادة للحكومة تارة ثالثة ... ، أما رجالنا الآليون ... ، فكم هم مختلفون ... ، فإن الدعاية الموجهة إليهم تحدث دائماً آثارها المقصودة ، ثم يواصل الحكيمان حديثهما ما الذى كان أشد الأخلاقيين حماساً يأمل فى فعله ولم يتحقق على أيدينا ؟ كان الإنسان دائماً عرضة للخطيئة . وإنساننا الآلى ليس كذلك ، كان الإنسان مراراً أحمق وما كان الإنسان الآلى كذلك قط ... ، كذلك كان الإنسان دائماً معرضًا للانحرافات الجنسية فى حين أن الإنسان الآلى ليس كذلك ، لقد اتفقنا أنا وأنت منذ زمن طويل على أن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يعتد به فى الإنسان والذى لا ينظر إليه بدونه هو « السلوك » وأن سلوك رجالنا الآليين لهو أفضل من كل الجوانب من ذلك الإنتاج البيولوجى العارض والذى ما زال إلى الآن منتفخاً بكبريائه الأحمق ... ، يا لبراعة خططهم ... ، يالإحكام إستراتيجيتهم ... ، يا لشجاعة تكتيكهم ويا لإقدامهم على خوض

المعارك ... ، من يا ترى كان يتمنى غير هذا اللهم إلا ضحايا الخرافات البائدة .

كان الدكتور فولبس والرفيق ستوكمادوفيتش قد توصلا إلى الوسائل التى تجعل الأفراد الآليين يستجيبون إلى الخطب ومن ثم فقد تم تسجيل أفضل الأحاديث لرجال السياسة فى كلا الجانبين ، وعندما كانت تسمع عباراتها التى تهز الأرواح كانت عجلات الأفراد الآليين تبدأ فى الأزيز ، ثم يبدءون فى العمل باحكام تام على نحو ما يتمنى السياسيون للبشر أن يكونوا ، ولم يكن الأمر ليستلزم إلا تعديلات طفيفة حتى يصبح الأفراد الآليون التابعون لجانب معين يستجيبون لنوع من الدعاية دون غيره ، وأن يستجيب أفراد الجانب الآخر لنوع آخر من الدعاية .

كانت أفراد الدكتور فولبس تستجيب إلى تلك العبارات النبيلة ، التى يقول بها عظماء الساسة فى الغرب : « هل بوسعنا أن نتردد ونحن نرى هذه الحشود التى عقدت عزمها على أن تمحو الإيمان بالله ... ، وأن تطمس فى قلوبنا ذلك الاعتقاد بالخالق الرحمن الذى يشد من أزرنا فى وقت المحن والشدائد والأخطار ؟ هل بوسعنا أن نتصور أننا مجرد آلات بارعة كما يقول أعداؤنا الذين لا أرواح لهم ؟ هل بوسعنا أن نغض أنظارنا عن ذلك التراث الخالى من الحرية الذى قاتل آباؤنا

من أجله ، والذى مازلنا نضطر فى سبيل الدفاع عنه إلى إنزال عقوبة السجن بالآلاف ... ، هل يمكن لأى واحد منا أن يتردد فى هذا لحظة واحدة ... ، وهل يمكن لأحدنا أن يتقاعس ... ، هل يمكن أن يتبادر إلى ذهن أحد منا أنه يمكن المفاضلة بين التضحية بمجرد حياتنا الفردية ... ، بوجودنا الشخصى المحدود وبين المحافظة على عالم من المثل قاتل من أجله آباؤنا وبذلوا دماءهم ... ؟ كلا ... وألف كلا .. إلى الأمام أيها الإخوة المواطنون ... ، وكونوا على ثقة فى سبيل الحق من أن النصر النهائى سوف يكتب لنا » .

كان جميع أفراد الدكتور فولبس الآليين قد تم تركيبهم على هذا النحو ، بحيث عندما كانت تنبعث هذه العبارات النبيلة من جهاز التسجيل فى وجودهم ، كانوا يهيئون أنفسهم دون تردد أو شك لأداء أقسى المهام المنوطة بهم التى كان الهدف النهائى منها هو إثبات أن العالم لا تحكمه الآلات فحسب .

أما أفراد الرفيق ستوكنادفيتش الآليين فقد كانوا على نفس الكفاءة كما كانوا يستجيبون بنفس القدر من الاستعداد لتسجيلات الكلمات الملهمة التى يلقيها القائد العام : « أيها الرفاق ... ، هل أنتم مهيئون لأن تظلوا إلى الأبد عبيداً للرأسماليين المستغلين الذين لا أرواح لهم ، هل أنتم على استعداد لأن تغضوا أبصاركم عن ذلك المصير

العظيم الذى أعدته المادية الجدلية لأولئك الذين تحرروا من الأغلال التى كبلهم بها المستغلون الحقراء ، هل يمكن لشىء على هذا القدر من الهمود وفقدان الحياة ... ، شىء على هذا القدر من القسوة والوضاعة مثل تلك الفلسفة الحمقاء ... ، فلسفة بورصة نيويورك ، أن تذل الجنس البشرى إلى الأبد ؟ ... ، كلا ... ، وألف كلا فلسوف تحصلون على الحرية إذا سعيتم من أجلها وبذلتم من المشقة ما بذله مبشروكم فى إنشاء الدولة العظيمة التى هى الآن نصيركم،هيا إلى الأمام ... ، للنصر... ، إلى الأمام ... ، للحرية ... ، إلى الأمام للبهجة والحياة .

كانت هذه الكلمات تفعل فعلها أيضاً فى استثارة أفراد ستوكنادوفيتش الآليين .

ويلتقى الملايين من أفراد الجيش المتحاربين ، وتظلل السماء أسراب الطائرات التى يقودها الأفراد الآليون غير أنه لم يحدث قط أن أخفق إنسان آلى فى أداء واجبه ولم يحدث قط كذلك أن فرّ من ميدان القتال ولا أن استجابت أجهزته لدعاية العدو المضادة وظل الحال كذلك حتى كان ذلك اللقاء فى عاشر أعوام الحرب بين الدكتور فولبس والرفيق ستوكنادوفيتش حين بدأت سعادتهما تحدها بعض الحدود إذ كان ما يزال بعض البشر فى الحكومات ، كما كان مايزال

من الضرورى الاستعانة بالبشر كخبراء ، وجيولوجيين لتوجيه الأفراد الآليين إلى مصادر جديدة للمادة الخام كلما نضب معين المصادر القديمة ، كذلك كان هناك خطر يمثل فى احتمال أن تقرر الحكومات الالتجاء إلى السلام كما كان هناك خطر آخر يصعب درؤه يتمثل فى أن نقصان الخبراء الجيولوجيين قد يترتب عليه انتهاء نشاط الأفراد الآليين نتيجة لنضوب المناجم .

لم يكن من المتعذر عليهما تجنب أول هذين الخطرين فعندما التقيا بهذه المناسبة أسرا إلى بعضهما البعض بأن لديهما الخطط الكفيلة بالإبادة المتبادلة للحكومات فى كل من الجانبين وأما الحاجة إلى الخبراء الجيولوجيين فقد ظلت مشكلة مؤرقة بالنسبة لهما ومن ثم فقد قاما فى هذه المناسبة بتكريس ذكائهما المشترك للوصول إلى حل لهذه المشكلة ، حيث قضيا شهرًا فى التفكير الشاق قبل أن يتوصلا إلى الحل فى النهاية وكان الحل يتمثل فى اختراع أفراد تنقيب آليين قادرين على قيادة الآخرين إلى المناجم المناسبة ، فكان هناك الأفراد الذين يستطيعون العثور على الحديد ، وأولئك الذين يستطيعون العثور على البترول ، وهناك المختصين بالنحاس ، وأولئك المختصين باليورانيوم ، وهلم جرًّا إلى آخر تلك الخامات اللازمة لشئون الحرب العلمية ، وهكذا لم يعد الآن يراودهما الخوف من أن نضوب المناجم القائمة

سوف يترتب عليه انتهاء الحرب وانقطاع البراعة الفنية عن ممارسة عملها .

بعد أن أتما صناعة الأفراد المنقبين قررا أن يأويا إلى كهفيهما وأن يترقبا فى هدوء انقراض بقية الجنس البشرى ، كان السن قد تقدم بهما ودبت إلى نفسيهما تلك السكينة الفلسفية التى يشعر بها أولئك الرجال الذين أدوا مهامهم ، وقد عمر هذان الحكيمان حتى أرذل العمر تطعمهما وترعاهما جموع الأفراد الآليين المطيعة ، ثم ماتا فى لحظة واحدة ... ، ماتا وهما سعيدان يعلمان أنه طالما بقى هذا الكوكب فسوف تبقى الحرب مشتعلة بغير ديبلوماسيين يطالبون بإنهائها ، وبغير فلاسفة كلبيين يشكون فى قدسية الشعارات التى يرفعها الفريقان المتحاربان ، ولا فلاسفة شكاك يتساءلون عن الهدف من هذا النشاط البارع الذى لا نهاية له .

استيقظ الدكتور فولبس وهو ممتلئ بالحماس ، حيث سمع نفسه وهو يهتف « لا أمل فى النصر .. الحرب إلى الأبد » غير أن كلماته قد تسربت لسوء حظه إلى كل الأسماع ، ومن ثم فقد أودع السجن .

فهـرس

كتب للمترجم

* **الهجرة من الجهات الأربع**

(شعر) بالاشتراك مع آخرين دار الكاتب العربى ١٩٧٠

* **الجرح الذى أصبح سيفاً**

(شعر) الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤

* **قلبى طفل ضال**

(شعر) دار العربى للطبع والنشر ١٩٧٩

* **أحزان الأزمنة الأولى**

(شعر) الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١

تحت الطبع

* **فلسفة برتراندراسل السياسية**
* **الحرب والسلام فى الفلسفة المعاصرة**
* **الشهداء يهاجمون مصر (مسرحية شعرية)**

الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع		١٩٨١/٤١٢٣
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤٩-٩٧-١	ISBN

١/٨١/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هــذا الكتاب

كان داعية للسلام ، حتى اتهمه الكثيرون بانعدام الوطنية ، وكان يستنكر العنف ، فقدم للمحاكمة بعد إعداده بياناً يعبر فيه عن آرائه ، وتُعد كتب راسل شاهد صدق على إخلاصه لنفسه وللإنسانية .

وهذا واحد من كتبه يتناول فيه راسل كوابيس الشخصيات البارزة التى كان لها شأن فى التاريخ والأدب والسياسة .. وربما أثرت بعض هذه الأحلام المزعجة فى رؤية المستقبل لهذه الشخصيات فكانت نقطة تحول فى مسيرة حياتهم ..

وقد تناول راسل تلك الأحلام المزعجة بأسلوب شاعرى شائق وكأنه حلم يأخذ بوجدان القارئ حتى نهايته .

أما مترجم هذا العمل .. فقد بذل جهداً فى يمتلك من ثقافة وقدرة على تفهم عالم راسل